

اركيو اندراجاتكم

قصص قصيرة

رهبان سعيد السيد

الطبعة العربية الأولى مارس ١٩٩٩

رقم الإيداع ٤٥٨٢٠ / ٩٩

التوزيع الدولي 7-147-291-977-I.S.B.N.



السلسلة الأدبية

رئيس المركز
على عبد الحميد

مدير المركز
محمود عبد الحميد

المشرف العام
على السلسلة الأدبية
خيري عبد الجواد

الجمع والصف الإلكتروني
مركز الحضارة العربية
تنفيذ : شريف على

٤ ش العلمين عمارات الأرقاف
ميدان الكيت كات
تليفاكس : ٣٤٤٨٣٦٨

رجب سعد السيد

اركبوا درأجاتكم





إهداء

يا أمي ...

هل هو امر شائع أن يطول غياب الآباء ... ١٩

رجب



(١)

* مشهد من الجنديّة

* محطتان

* بريد حربي

* سمك مشوي

* ظلام



مشهد من الجنلية

أكياسنا الثقيلة معلقة بأكتافنا ، ورياح كالرصاص ، لا تأبه بأرديتنا الكاكية الخفيفة . الوجه الجامد ، والشفتان الضيلتان والنطق المتعثر . قال : نصيحة غالية .. إنسوا مؤهلاتكم الجامعية خارج أسوار هذا المعسكر ، أو اجعلوها في هيئة لفافة رقيقة وأدخلوها في مؤخراتكم !

قال أيضاً : إن مهمته أن يصنع مناً رجالا ، وأن من لا يستجيب سيرى كيف يكون العقاب في سجن المعسكر ، حيث الوحوش في شكل رجال هوأيتم اللواط !

هو معنا في خندق واحد ، نلوك المرارة وتشوى أجسادنا عذابات الوطن . إذن ، لماذا يواجهنا بكل هذا العداء ؟
هل يجب أن يبدو هكذا متجهما ككل شئ تراى ؟

حساسية عدوانية ضد كل ما هو غير مصفوف . أيها الجندى المستجد ..
لقد دخلت من هذه البوابة ، وهذا يعنى الشئ الكثير . أنا أريدكم داخل
هذه الأوعية الكاكية اللون . مهمنى أن أجعلكم تنسون كل شئ . أنت رقم
واسم ثلاثى واستجابة فورية . لا شئ آخر .

- 'مقدرة هائلة على التشبه بالجبل .. لونه النحاسى ، ملامحك
أخدودية كالحفريات العديدة التى تنتشر كبثرات غائرة ..

- 'وأنا وضعتك فى بطنه .. فى خيمة تبتلعها بثرة ...

- 'لن أدعك تملكنى .. لقد بدأت العداء ..

- 'كلنا هنا من أجل الوطن ...

- 'أنظروا .. الوطن ! .. أمسك بالورقة التى يظن أنها السيف ! ..

الوطن ! .. من يدرك معنى الوطن ؟ .. لم آت إلى هنا لأتعلم من مسخ
معنى الوطن ..

ولا أعتقد أن تعليمى ذلك يستدعى أن تقذف بى إلى مستطيل خشبى
على أرض خيمة فى حفرة غائرة محاطة بأهرامات صغيرة سوداء مخرمة
من البراز الجاف .

- 'خذوه إلى القره قول ..

جرعة سجن إضافية . والمكان لا بأس به من الخارج ، حجرة كبيرة ،
تبدو نظيفة ، وحولها حديقة مقسمة . من أين يصدر هذا الاطمئنان إلى

المكان ؟ لابد أنه الشوق إلى حضن الجدران بعد تلك الأيام القليلة من ممارسة العراء على أرصفة محطات السكة الحديد ، وفي قطارات الجنود الليلية البطيئة .

- "انتباه يا جندي !

وجه مختلف ، لكن نفس درجة العداء فى الصوت والملامح .

- "متبه إليك

- " ماذا ؟ .. هل تدعى البلاهة ؟"

- "أبدأ ... حقيقة .. أنا متبه .. ماذا لديك ؟!

- " يبدو أنك جندي مؤهلات ... نظارتك وشكلك وتعجرفك ..

ادخلوه !"

الحارس ذو ضآلة مضحكة ، مضطرب ، يحمل بندقية فارغة والسونكى غير مشرع . وهو المكلف بتنفيذ أمر الحكمدار متنفخ الوجه .

حسن . هذا هو الاقتياد الثانى إلى هذه الجدران . هذه المرة عصيان .

والمررة الأولى ؟

ليلتان بمبلايس النوم فى سجن الحضرة ، بتهمة الاشتراك فى معزوفة احتجاج عام ، فى حلبة تبادل اللطمات . غطينا الجدران بالأوراق . تدفقت فوقها ارتعاشاتنا . انتهى اليوم يؤتمر صاحب وحنجرة مهلمة ، وصداع وساقين خائرتين تحملان الجسم الذى أرهقته الأنيميا . بعد ساعات قليلة

من الاستسلام للنوم ، دهمت البيت الأرجل الغربية . فزع الجيران وهم يرون نفس العربة التي تطارد لصوص الميناء ونجار المخدرات تحمل الابن الأكبر للأسرة . و .. قرب الفجر ؟ . ونطقوا كلمات السياسة وزوراً الفجر والمظاهرات وقضية الطيران .

نفس الهواء المتسخ . نفس التواذر ، وإن كانت أقل كثافة . نفس درجة الإظلام . وتلك العنمة من الداخل ، تطل هذه المرة مع إحساس غريب بالراحة . أجساد ملقاة ، وأصوات تهوّن الأمر على القادم الجديد . هل تعطوني الألفة من أجل سجاثرى ؟ .. من أجل أنتى جندى المؤهلات العليا المسجون ؟ . هيا نشرثر حول اتهامى بأننى مختل لا أصلح للجنديّة . قال الرقيب إننى لا أعرف معنى الوطنية ، وإننى عنصر فاسد لا يشعر بالواجب والمسئولية . كل ذلك من خلال كلمات جافة ، ووجه جامد كله عدا ، ويطلب منى - خلال اتهامه لى - أن أقف متصلباً لا التحرك ، والبرد الجلبى يخترق لحمى . هيا نشرثر عن جناياتكم الصغيرة التى تغتفر إلى جانب جرمى العظيم ..

- "المختص بجلب المياه يخرج ا"

قام ، دعانى للخروج معه ، مد يده وسحبني من يدي . قال إنها فرصة . حملنا أوانى المياه الحديدية وخرجنا .

أمام الصنبور الكبير فى المصنع الحربى المقابل لمركز التدريب ، وقف يلعب بالماء . طفل يرش الماء على وجهه ويعرى ذراعيه وساقيه . تبوّل

واغتسل . جرى هنا وهناك - تحت أعين الحارس المرافق الذي يحمل
بندقية خالية من الرصاص - ولعب مع فراشة كانت تحوم فوق وردات برية
صفراء ، نبتت فوق سيقان خضراء رفيعة في بركة المياه المتكونة حول
الصبور الكبير .

اشفتت عليه من حمل الوعاء الحديدى مملوءاً بالماء . أنا أيضاً استحق
الإشفاق ، فوعائى ثقيل جداً ، ولا أكاد أتحمله . ولكنى سعدت بمرح
الجندي الصغير ، رفيقى السجين .

قال : "سأخذه عنك .. سأحمل واحداً بيدي اليمنى والآخر باليسرى ..
هانه .."

أخذه عنى . قال : "أنت ابن ناس ومتعلم .."

كانت له ابتسامة واضحة متصلة . أشركته فى سجائرى ، وأحييت
رحلة جلب المياه معه كل يوم .

وفى آخر ليلة لى فى الحبس ، استيقظت قرب نهاية الليل على أصوات
غريبة . كان الجندي الصغير رفيقى السجين يتام قريباً منى على الأرض .
وكان يئن . وكان نصف عار . وكان حكمدار السجن الغليظ هناك أيضاً .
وكان نصف عار . ولم أكد أطلق صيحة استنكار حتى كانت اليد الباطشة
تدك وجهى وتجعلنى أترنح .



محطتان

الأولى : فى زمن الرمال الصفراء والزنبقة البيضاء

موقع محاصره كئبان الرمال العالية . عند الصباح ، أشعر بالرمال فى أغشية أنفى ، وعالقة بشعيرات رموشى . تناثرت الفرقة . فكان نصيبنا هذا الموقع الجديد

انتهت أيام التوتر الشديد ، ولكننا - وقد تمت لقاءات الخيمة عند الكيلو ١٠١ - لم يكن واضحاً أمامنا ، هل نسترخى أم نستمر فى التوتر؟ هل نصدق - حقاً - أن الحرب قد انتهت ؟

مرت ثلاث سنوات ، ولازلت لا أعرف موعداً لانتهاه تجنيدى لازلت أحمل شرائطى الثلاثة على ذراعى الأيمن ، وأمارس تمييزى كواحد من فئة

المجندين الجامعين (هـ . ع) ، أناقش وأفلس ، وتجمعنى بضباطى
جلسات خاصة ، تسقط فىها أئنة الرتب العسكرية ، ونشر كزملاء
دراسة .

نقاسنا جرعات مريرة قبل أن يفقا هدير مدافع الظهيرة التحضيرية
عين الانتظار السمجة لم ييخل أى منأ على نفسه بنصيب واقر من نشوة
المشاركة فى الفعل . لم يكن اللون الأسود أقل مساحة فى عىنى قبل أن
تولد فى صفتنا صرخة الفعل ، ولكنى كنت - معظم الأحيان - أفلح فى
تغيير ملامحه إلى ستارة رمادية ، لا تكاد تخفى زبقة بيضاء مشرقة ،
تعملها ساق دائمة الاهتزاز .

انتهى القتال ، وجئنا إلى هذا الموقع ، وبدأنا نتحدث من جديد . لم يعد
لدينا ما نفعله إلا أن نتحدث ونزاول أعمالا تتدنى كثيراً عن أداء المقاتلين .
وكنت ساخطاً - معظم الوقت - ولا أخفى الإفصاح عن رأى فى أن
الزبقة كانت بين أصابعنا ولكنها - كيف ؟ - اختفت ولم أعد أرى غير
متوالية من الستائر الرمادية ، وتلال من الرمال الناعمة ، تتناقلها رياح
الصحراء ، وتجعل لها أسطحاً ناعمة مخادعة ، وتتسلل ذراتها إلى جهازى
التنفسى .

ولم أكف عن التساؤل : هل أفسدنا الحلم بأيدينا ، مرة أخرى ؟!

يتعاطف معى أحمد أمين طلبية والضيع وسالم وأحمد سعد وإبراهيم
عبد الرازق ، أفراد فصيلتى ، من قنا وأسبوط وسوهاج والمنوفية يوقدون
النار ويصنعون الشاى نشرب بالمشاركة

يختصوننى بالكوب الزجاجية الوحيدة . يقولون : حدثنا بهذا الحديث الذى يكاد - مثل شعرك - يكيئا .. حدثنا عن مصر التى لا نعرفها ، التى كنا نظنها تبدأ وتنتهى بميدان باب الحديد وعربات الدرجة الثالثة فى القطارات المتهالكة ، المتجهة من الصحراء إلى قرانا إنك تتحدث عن حيبة تراها مائلة أمامك ، وقد أضفتنا إلى قائمة المحيين حدثنا بالمزيد عنها .. ما الذى تخبئه لنا فى قميصها الحريرى ، ونحن نعود إليها وقد وضعنا السلاح جانباً ؟ . هل هى أنثى طيبة ؟ هل هى أم تفيض بالحنان وتوزع رغيف القلب على أبنائها بالعدل ؟ . هل سنتجمل من أجلنا وتكون صادقة فى وعودها ؟ . ليس أحلى ولا أسهل من الحديث إلى أجباء . أتدقق بكل ما أعرفه . وأثناء تدفقى ، اكتشف ما لم أكن أعرفه ، وأحياناً كانوا يأخذون ييدى إلى أراض للسحر وإلى مصبات أنهار من شعر وعسل مصفى .

وفجأة ، يغتال نألفنا صوت (الرتالة) الحاد المستمر البفيض ارتبط صوتها بالإنداز بالخطر القادم فى أيام القتال . الآن ، تدعوننا إلى (طابور) من السأم

التأفف والتشاغل . يتحركون من كل جهات الموقع المنع يكسومهم استرخاء مقاتل هجر خندقة . وكنت فى مقدمة المقترين من مكان تجمع الطابور . رأيت قائد السرية متجهماً ، يقف بدون غطاء رأس ، ممسكاً بعضا رفيعة ، وسمعته يصيح غاضباً دامغاً الجنود بانعدام الرجولة .

لم أحاول إلا انتقاء أقل الألفاظ إيلاًماً . أنا أحد جنوده الذين قاتلوا معه ، ويقذفهم - الآن - بالنقائص .. صحت :

- (هؤلاء جنود مقاتلون ، وليسوا أجراء فى أرضك .. قائد أنت أم ملاحظ أنفاز بانس ؟!) .

لن أنسى ملامح وجهه قبل أن يثور ويتراجع هادراً إلى مكتبه ، صائحاً فى مساعد السرية أن يأتى بى إلى المكتب ، مع (أورنيك الذهب) .

اقتادنى المساعد إلى محكمته . أمر المساعد بالانصراف . بدأ الحديث غاضباً . نصحتنى أحد ضباطه - إشارة - أن التزم الصمت . كان صوته العالى مستمراً فى توجيه الاتهامات إلى ، والتهديد بأشد العقاب . تدخل الضابط ملتصقاً لى العذر ، فكلنا مرهقون وأعصابنا متوترة ، وطلب منى أن اعتذر . توقف القائد منتظراً اعتذارى . قلت فى هدوء شديد :

- لم أخطئ لأعتذر ! .. لم أكن لأسكت حين يقال لنا أشباه رجال .. إننى أذافع عن رجولتى وشرف زملائى .. بل عن قائدى نفسه .. إذا كنا نحن أشباه رجال فكيف ارتضيت لنفسك أن تقودنا فى الحرب يا سبدي ؟!

صرخ قائد السرية منهباً المحاكمة : خذوا هذا الرقيب من أمامى !! .

وعلمت أن الجزاء كان الحبس لمدة عشرة أيام .

ولكن ذلك لم يستمر إلا لساعات قليلة . فقيل أن يتصرف الليل ، فوجئت بالقائد نفسه يدخل إلى (ملجئى) . بادر بطلب الشاى . كان ضيقى ، فأسرعت أعد الشاى .

نظر إلى بعض الكتب والأوراق المتناثرة فوق الفراش . قال : كيف تقرأ
فى ضوء هذا القانوس ؟ .

مد يده إلى الأوراق ، وقال : ماذا تكتب ؟ .. هل لى أن أرى ؟ ..
لعلك تصبغ منشوراً ضدى ! .

كان يتحدث وأنا مأخوذ بمفاجأة الزيارة ، ويدى مشغولتان بالشاى
والسكر . نظر فى الأوراق طويلاً . قال : سمعت أنك تكتب الشعر .. يبدو
أن هذه قصيدة جديدة .. زنيقة من دم المدثر ! .

قلت : المدثر الدرديرى على .. زميلنا الذى استشهد عند المعر ! .

أريد وجهه ، وضمغم : أعرف .. أعرف .

قرأ القصيدة ، وأخذ يحتسى الشاى صامتاً . سألتى فجأة : هل أزعجك
الجزء ؟ .

قلت بعد تردد : ليس كثيراً .. فحالنا العام أقرب إلى الحبس الدائم ..
لا أحد يغادر السرية ! .

فاجأتى ثانية يسأل : هل لك حبيبة ؟ .. لكل شاعر حبيبة ! .

ابتسمت فابتسم . قال وهو يترك الكوب جانباً ويستعد لمغادرة الملجأ :
راجع مكتب السرية صباحاً .

وفى الصباح ، كانت الورقة المختومة فى يدى ، وكنت أغادر أرض
الكثبان الرملية ، أفكر فى الأماكن التى سأشيد فيها قصيدتى الجديدة .

الثانية : فى زمن الحرائق

اسميه زمن الحرائق ...

أرفض الإجابة على دهشة من يتساءلون عن ضرورة انبعاث الدخان
أعظم الحرائق لا تنتج دخاناً ! تنفس ، فانت - إذن - تشعل حريقاً . هل
يمكنك أن تكف عن التنفس ؟ .

أنت كائن حى .. أنت مشعل حرائق ... فلماذا يطالبونى بدليل واه ،
كالدخان ؟ ! . لا تسألونى .. إن حرائق الدخان هى حرائق الإطفائيات .
حرائق هذا الزمن - التى أراها - لا نجد ضرورة لغاز الأكسجين . إذا
رأيتموها فافعلوا كما أفعل . لاجابة بكم إلى الهاتف لاستقدام عربات
الإطفاء . فقط ، قفوا ، وانظروا .. اكتفوا بالمراقبة ، وإن استطعتم ، لا
تقتربوا من السعير ! .

كان ارتفاع درجة الحرارة يطاق . لم يكن قد وصل إلى درجة الشواء ..
برغم الكراهية المتبادلة ، طلبنى . يحتاج إلى ..

قالت زوجتى : لا بأس .. فرصة .. وأماننا تكاليف بداية العام
الدراسى .. مصروفات المدرسة .. الملابس .. السيارة .. والشتاء داخل ،
ولم تعد ملابسنا الثقيلة القديمة تصلح لمواجهة توحش موجات البرد .

فقلت له ، لا بأس . وكنت أضمر أنها فرصة لأرى مساحة من وطنى ،
وأسمع اسمى من قائمة الذين لا يعرفون خريطته إلا فى كتاب الجغرافيا .

نوارينا ، ولم نعلن هدنة ، ولكننا عشناها . تبادل الكائنات الدنيا
المتفعة . تتعالى نحن عن سلوكها . هي ترقى به وتعيشه في احترام للحدود .
نحن نتوارى ونمارسه .

جمعتنا المائدة وهو على رأسها . يتكلم عن خطة الأعمال الحقلية ،
ابتداء من جنوب الفردقة إلى الشمال ، الشفافاً حول خليج السويس ، حتى
رأس محمد ، الامتداد الجنوبي المدب من شبه جزيرة سيناء ، وأنا أنصت
وأشارك .

حاولت أن أضع مطالب زوجتى جانباً ، وأخلق مبرراً آخر : عمل
قومى متميز ! .. ما رأيك ؟ .

فى الأعمال التحضيرية ، صفت بعض الخطابات .

السيد ... يجرى حالياً بالمركز الإعداد لبعثة قومية لدراسة أحوال
الشواطئ المصرية وتقصى آثار التلوث بالزيت فى منطقة خليج السويس
حتى جنوب مدينة الفردقة على ساحل البحر الأحمر . وسيقوم الفريق
البحثى بالمعمل فى شواطئ المناطق المذكورة ومياهاها الساحلية . نرجو
التكرم باتخاذ اللازم نحو تسهيل مهمته .

وكان ضرورياً أن أسأل عن التمويل . ابتسم : لا تخف .. ليس كما
تظن ! .

وكان يعرف أنى لا أتعامل مع المشروعات العلمية التى تمويلها سياسة
التطبيع . إن لم تكن إسرائيل الممول ، فمن يكون ؟ .

شركة بتترول كبيرة . حاولت أن أعرف أكثر . لم تكن المعلومات متيسرة ، واكفيت باطمئنانى إلى أننى لا أرفع فوق رأسى علم التطبيع .

نقلة حادة . سنوات العمل الطويلة فى المختبر عودتنى على الاسترخاء . يختلف الحال فى الميدان .. فى عربات متهالكة .. تحت شمس ساخنة .. حد أدنى من متطلبات المعيشة ، نتيجة لقصور واضح فى التجهيزات الإدارية .. ومساحات عريضة من الشواطئ لا تزال تنفجر فيها الغمام الحروب الماضية من حين لآخر ، فيصبح ارتيادها جنوناً .

معى آلة التصوير وقلمى وأوراقى وأكياس النايلون لحفظ النماذج والعينات . على رأسى قبة قطنية مبللة بالعرق وأبخرة ملحية . يعتمد خط الماء خلف مرتفعات جبلية أو مساحات شاسعة من الرمال المستعصية ، فننقده ، ثم يعود فيقترب لنتلقى به .

حماسى واضح لى أنا قبل أن يرصده رفاق الرحلة . كان البحر الأحمر عالماً مجهولاً لى قبل الآن ، فقد اقتصررت خبرتى على الساحل الشمالى ... وها أنا أبداً جولتى معه فتأكل جدران قلبى حسرة وأسى .

فى أول جلسة لمناقشة أحوال العمل والتقارير عن عمليات المسح للأيام الأولى ، كان رده على ما قدمته أن ألتزم الحياذ ، ولا شأن لنا بما هو موجود . كان مطلوباً منى إلا أقول شيئاً عن فوضى التداخل العمرانى فى قلب البيئة البحرية ، والانقراض التى يأتون بها لدفن مساحات هائلة من بيئة الشعاب المرجانية الضحلة ، لترتفع فوقها مبان لقرى سياحية وقصور .

قلت : إنهم يتصورون البحر أنبوبة مجارى ! ... إنهم لا يعاملونه
ككائن حى .

وقلت : الزيت والقمامة وكرات القطران فى كل مكان .. فماذا تريد
الشركة الأخطبوطية أن تفعل بهذا البحر أكثر مما به ؟ .. كتل أسمتيه
تقوم على أشلاء بحر تراجع فيه الحياة .. تباع شواطئه لتنفذ عليها
المعاول ، وترتفع أبنية تطل على مياه كابية ، لا يدرون أنها تموت ببطء ،
وسياتى يوم يفتحون فيه نوافذهم فتهب عليهم رياح القبور بدلاً من نسيم
البحر .

ثرت وقلت إننى لن أكون مشاركاً بالسكوت .

قال إن مهمتنا علمية ، وإنه ليس علىّ إلا أن أعطيه تقريرى ، فنتتهى
مهمتى ، وأحصل على أجرى .

وكنت أعرف أن ما يقوله هو الحقيقة التى قبلتها منذ البداية ، فتعاطمت
درجة الحرارة وبدأ الاحتراق .

للمت أوراقى وضادرت المكان إلى استراحتى المليئة بالذباب . تبسنى
شريكى فى الاستراحة . وجدنى أرتب حقيبتى . ولم يجد مشقة فى
تهدئتى .

وقبل أن تظهر شمس الصباح ، كنت - كالعادة - أحمل أوراقى وأقفز
إلى العربة العجوز . كنت حريصاً على قبعتى التى تحمى رأسى من وهج
الشمس . وكنت أخوض فى المياه الضحلة لمسافات طويلة ، ولكن ذلك لم

يكن له أثره المبرد الكافى . فالمياه ساخنة .. بل إنها تحترق . والرمال الملطخة
يسقع الزيت وكريات القطران لا تكف عن الاحتراق . وكان السرطان
الراهب يجرى إلى المياه أملاً فى إطفاء نيران تهلب صدفته ، ونجوم البحر
ذات الأذرع السوداء الهشة الطويلة تتلوى مختنقة . وكنت أنا أحاول أن
أنزع قدمي من بركة وحل زيتي ، وأدوّن ملاحظاتي التي سأعتمد عليها
آخر النهار فى إعداد تقرير علمي محايد .

بريد حريمى

حتى هذه اللحظة ، لا أجدنى واثقاً من أننى سأكتب الخطاب . أعرف تماماً ما أريد أن أقوله ، ولكن داوفاً غير محددة الملامح تجعلنى أتردد . طلبت رقم البريد الحريمى من زوجته ، فرحبت وأعطته لى فى ورقة صغيرة . أردفت قائلة : أرجوك ، لا تعطه لانتصار إذا طلبته منك .. لا أريد أن تتصل بأبيها إلا عن طريقى ا .

اعتبرت ذلك داخلاً فى دائرة شئون بيتها ، فلم أتوقف أمامه كثيراً . ظلت الورقة تحت زجاج سطح مكتبى عدة أيام ، تطالعنى فى كل مساء حين أجلس للقراءة أو الكتابة ، وتتسبب فى تعطيلى عن أعمالى لبعض الوقت ، حتى أحسم التردد بتأجيل التفكير فى الموضوع .

قبل ظهر اليوم ، اتصلت بى زوجته هاتفياً ، وأبلغتنى بأنه يسأل عنى ..

فهو يتصل بها من شرق السعودية بانتظام . قالت له إنها أعطتني رقم البريد الحربي منذ مدة طويلة . قال لها إن البريد منتظم ، ولم يصله منى أى خطاب . اضطرت إلى أن أسوق بعض المبررات ، مع اعتذارى عن التأخر فى الكتابة إليه .

فى نشرة أخبار المساء المصورة ، كانت الدبابات بالأرقام العربية تجرى فى بحر الرمال . لم أستطع القطع بأنها دبابات لوائه . رأيت أيضاً وجوهاً مختلفة لجنود يعزفون الموسيقى ويغنون ويرقصون أمام شجرة عيد الميلاد ، فى خيمة تختلف تماماً عن خيام الجنود الفقيرة الكثيرة التى عرفتها بعض الوقت قرب قناة السويس . ولم يستوقفنى بين أخبار الصراع غير خبر صغير فى صفحة داخلية من صحيفة هذا الصباح ، عن اهتمام مراكز البحوث فى مصانع الحلوى الأمريكية بانتاج أنواع جديدة من الشيكولاته لا تتأثر بحرارة الصحراء ! .

أخرجت الورقة من تحت زجاج المكتب . فكرت فى أن أنقل محتوياتها إلى قائمة عناوين الأصدقاء المغترين . ويعد أن فعلت ، عدت وفكرت فى أن ذلك لم يكن ضرورياً ، فالقائمة مخصصة للعناوين الدائمة وشبه الدائمة ، ولا أعتقد أن الأمر سيطول . ولكنى لم أحاول شطب العنوان من القائمة .. قلت فى نفسى من يدرى ! .

جاءت زوجتى بالشاى ، وقالت :

- (ربنا يهديك .. أكتب للرجل .. لا تدعه يظن أن أعز أصدقائه يتخلى عنه فى وقت الشدة !) .

وسحبت مظروفاً ، وضعته أمامي ، وعادت تستحلفني أن اكتب ، لأن الصداقة شيء ، والأفكار التي (تملأ مخي) شيء آخر .

تعجبت لتدخلها بهذه الصورة غير المسبوقة ، ولكني لم أصدها ، بل ابتسمت ، وأمسكت بالقلم ، وكتبت على صفحة الغلاف : بريد حربي ، في الركن الأعلى إلى اليمين ، وفي الوسط تماماً ، رقم الوحدة ، ورقم المجموعة . وآثرت أن اكتب اسم صديقي كاملاً مسبوقةً - فقط - برتبه العسكرية المركبة ، ورأيت أنه قد لا يكون من المناسب أن أسبق اسمه ورتبه بكلمات مثل الأخ العزيز أو صديقي الحبيب .

بقيت زوجتي معي في الغرفة تشرب الشاي . جلست في مقعد أمام المكتب . كانت رغبتها في الثرثرة واضحة . قالت :

- (نبيل اعتمر في الأسبوع الماضي) .

أخبرتها صفية - زوجة نبيل - بأنهما كانا ينويان الحج معاً .. وها هو قد جاءته الفرصة ليعتمر وحده . طيبت خاطرهما ، وقالت لها إن الأيام قادمة ، وسيكتبها الله لكما مادمتما نويتما الحج . قالت إن صفية أصبحت أكثر ثباتاً ، بعد أن كانت لا تكف عن البكاء في الأيام الأولى بعد رحيل نبيل إلى السعودية . وحشدت زوجتي كل قدرتها على المناورة لتتلافى غضبي المتوقع ، وهي تمرر إلى إشارة إلى بداية اهتمام صفية بسعر الدولار في السوق السوداء .

استقبلت الإشارة ، ولم أعلق ، فشجعها ذلك على الاسترسال

- قالت :

- (عندما أخذوا أخى إلى اليمن كادت أمى تموت من الحزن .. ولكنه رجع واشترى نصف بيت ا)

خرجت عن صمتى ، وقلت : (غيره رجع فى صندوق ا) .

ارتفعت ذراعها محتجة ، وقالت :

- يا شيخ .. الأعمار بيد الله !!

احتد صوتى :

- (ولكنك تنسين شيئاً جوهرياً .. وهو أننا نتحدث عن جنود ! .. هل تفهمن معنى كلمة جندى ؟)

وكعادتها ، تراجعت إلى الصمت أمام عنف لهجتى . ولم أكن أقصد الاستمرار فى محاورتها ، بل لعلى كنت أحداث نفسى :

- (وجاءت ٦٧ .. وكان ما كان ا) .

جاءت (انتصار) إلى الدنيا فى نهاية ٧٣ . اختارت لها أمها الاسم لأن أباهما كان مرابطاً عند قناة السويس . كنا فى ديسمبر ، وقد أصبحت الأوضاع فى حالة من الاستقرار نسمح بالتصريح له بترك كتيته والسفر إلى الاسكندرية لاستقبال انتصار .

وكنت أعرف أن انتصار تعيش فى حزن دائم منذ رحيل أبيها إلى السعودية . ولست أدرى كيف يدبر أموره هناك ، ولكنه يكلمها هاتفياً كل

يوم تقريباً . وبرغم ذلك ، فهى لا تكاد تبارح حجرتها فى البيت إلا فى الصباح ، حين تخرج إلى المدرسة . أوصانى نبيل ، ونحن نودعه ، بأن أرعى انتصار فى غيابه ، وكان قلقاً لأن الأحداث المتلاحقة واكبت استعداد ابنته الوحيدة لامتحان الثانوية العامة .

وكانت انتصار منهارة تماماً فى آخر لقاء بأبيها قبل سفره . طمأنته ، آملاً أن يخف الحزن مع الأيام ، ولكن البنت تدبل ، ولا تلتفت لدروسها ، وأنا حائر ، بل عاجز عن مساعدتها . تتابها ، من وقت لآخر ، نوبات عصبية ، تصرخ ، وتحطم ما تجده أمامها ، وتصيح منادية أباهما باسمه ، طالبة منه أن يعود إليها .

استدعنى أمها منذ يومين ، فهرعت إليها . لمجحت فى وقف هياج البنت . تعلقت برقبتي نستحلفنى بالله وبصداقتى لأبيها أن أكتب إليه ليعود . وكنا نحدثها بما تعرفه هى .. باستحالة أن يعود الأب ، فهو رجل عسكرى محكوم بقوانين ونظم عسكرية . وكانت تصرخ :

- (أعرف .. أعرف .. وأنا أعرف أبى أكثر منكم .. إنه أشد الناس انضباطاً .. وهو يحب عمله ، وكنا نتركه له معظم الوقت .. ولكنى أريده .. لا أحبه أن يدخل هذا الجحيم .. أبى مقاتل .. أعرف تاريخ أدايه العظيم .. اعتنى بأوسمته ونياشينه ، وأشترى له علامات الرتبة المذهبة عند كل ترقية .. أبى مقاتل .. أتعرفون معنى هذه الكلمة ؟! .. فكيف تريدوننى أن أتركه فى هذا السعار ؟!) .

وكننا فى حجرئها نحيط بها . هداى ، وطلبت منى أن أبقى بمفردى معها . انسجت أمها وزوجتى . كفت عن البكاء ، وحاولت تخفيف الدموع التى ملأت صفحة وجهها . وكانت مستمرة فى طور الهدوء ، وتنادىنى بيا (عمو) وتقول :

- (حاولت أن أحسب حجم النيران التى يمكن أن تنتج عن كل ما تم حشله ، وتخزينه من مواد مدمرة فى ذلك الشريط الضئيل من الرمال .. طبعاً عجزت .. ولكنى أشهد الموقعة فى كل ليلة .. كابوس بعد كابوس .. كرة نيران ضخمة تندحرج فوق رمال الصحراء ، ودبابه أبى تعلق بطرف لسان أحمر فى بؤرتها .. عينا أبى تنظران إلى فى فزع ، والقناع الواقى من الغازات يغطى وجهه .. يمد لى يديه لانتشله من بحر رمال متحركة يمسك به ، وأنا عاجزة أصرخ ولا نصبر ..) .

وقامت متجهة إلى رف للكتب فى ركن من حجرئها . سحبت ثلاثة كتب ، وعادت لتضعها أمامى . واصلت تتحدث فى خوف واضح :

- (أنظر .. قرأت كل هذه .. خلدها واقراها ، وحاول أن تنام بعد أن تتضح لك أهوال الحياة تحت سحابة غاز حريمى ..) .

توقفت قليلاً ، وعادت للبكاء ، ولكن فى هدوء ، وتقول ، وكأنها لا تريد أن تنطق الكلمات :

- (هل تريدنى أن أترك أبى يباد مختنقاً فى صحراء بعيدة ؟) وصمتت طويلاً ، مغمضة عينيها ، حتى خلثها تريدنى أن أتركها . فلما سألتها فى ذلك ، سارعت تقول :

- (لا .. من فضلك .. إبق معي .. سأقول لك شيئاً آخر يحزنني .. حاولت أمي مواساتي ، وقالت إن سفر أبي ليس كله شراً .. بل قد يكون فيه خير ! .. سنجد نقوداً أكثر .. وستكون هناك فرصة لتشتري لي شقة أتزوج فيها، وجهازاً صرخت فيها لتكف عن أفكارها المشينة هذه !) .

حاولت أن أدافع عن الأم ، فقاطعت انتصار :

- (لا تظلمبها .. كانت نعم الرفيق لأبيك .. وعاشت أياماً طويلة مشحونة بالقلق ، وتحملت كثيراً .. هي الآن تفكر بشكل واقعي .. مادامت الفلوس موجودة .. وهي تحبك .. لا تطلب شيئاً لنفسها .. كل تفكيرها يدور حولك وحول مستقبلك ..منطق معقول ..) .

ضحكت ضحكة صغيرة ، وقالت في أسي واضح :

- (يا عمو .. لا تحاول للمجاملة على حساب الحقائق .. أين العقل الذي تحدث عنه ؟ .. علمونا في المدرسة أن المنطق نظام .. وأنت تترك كمّ الفوضى في العالم .. اختلطت الأوراق .. تبدلت الأحوال .. عدو الأمس صديق اليوم) . وسكتت تتنفس بعمق ، ثم عادت تحدثني وهي تنظر في عيني :

- (هي مسكينة .. تحملت كما تقول ..وهي لا تملك شيئاً .. كلنا لا نملك ما ندفع به ما لا نرضاه .. يخرج إلينا الناس شمعيون ، نغمرهم الأضواء .. يتسمون دائماً .. يتحدثون ويهزون رؤوسهم .. يؤكدون .. نوافق .. ينفون .. نوافق .. وفي كل الأحوال ، نبلوا سعداء ، ونبدوا

مقتنعين .. ولكنهم ليسوا دائماً على صواب .. أحياناً ، لا يرون بعيوننا ..
هل ترى ما أرى يا عمو؟!) .

انتهى حديثها بالسؤال ، وكان على أن أخرج من إطراقتي وأجيب .
ولكن يجب ألا أخفى أنني كنت أستمع إليها من خلال دهشة فرح
بافكارها الواضحة المرتبة ، وبقدرتها على الإفصاح عن هذه الأفكار في
سهولة محيية .

وكانما أدركت حيرتي ، فكفتني مشقة البحث عن كلمات ، وقامت مرة
أخرى ، ولكن إلى مكتبها الصغير الأبيض . فتحت درجاً ، وأخرجت
حافظة أوراق ملونة متضخمة . وضعتها أمامي ، وعادت تقول في حماسة
واضحة ، وقد زال انطفاء الحزن في عينيها وحل محله توقد مدهش :

- (أوراق أوى .. مذكرات خاصة .. خواطر .. يوميات ٧٣ .. فيها
أيضاً كلام جميل عنك .. عقدنا اتفاقاً أن أساعده في ترتيبها وتبويبها بعد
أن يترك الجيش ، ليصدرها في كتاب .. وتركها أمانة لدى ، في ليلة سفره ..
وأوصاني أن تحل محله في إعداد الكتاب .. إذا لم يعد (١١) .

وغالبت دموعها في محاولة للتماسك ، واستمرت تتحدث :

- (قرأت جزءاً منها معه .. يقول أوى ، في وضوح تام ، إن العدو الأول
لنا هو إسرائيل .. يرى أن يكون ذلك واضحاً تماماً في أذهان العسكريين ،
بالرغم من محاولات السياسيين وتوجهاتهم .. يرى أن ندع السياسيين
يفعلون ما يشاءون .. ولكن هذه الرؤية يجب أن تظل عقيدة كل العسكريين

لكى لا يأتى وقت يرنعش السلاح فى أيدىنا . يرى أن ذلك يجب أن يظل
جمرة متوهجة ، لأن قوى شريرة تترصد بنا ، ولن تتروك فرصة لختق
التوهج وإجهاض قدرتنا على الفعل .

توقفت لتلتقط أنفاسها ، ولتدعنى أنا أيضاً أتوقف قليلاً عن اللهاث
وراء تدفقها . وكنت أنظر إليها وكأننى أرى أباهما . فى زمن غير بعيد ،
حين كان الحماس يكاد يقفز من عينيه وهو يتحدث عن قضية يريد أن
يتصر لها أفصح لها عن هذه الأفكار ، فضحكت فى صفاء ،
وأضحكتى كثيراً وهى تشكك

- (إن أبى يشبهنى كثيراً ١١) .

وقبل أن أخرج من حجرتها ، كانت آخر كلماتها لى تقول

- (سهل جداً أن تقرا فى الأوراق مدى إقبال أبى على القتال منذ حرب
الاستنزاف حتى ٧٣ يتحدث أبى عن معنى كلمة الشهادة كسلوك
اصتيادى لجندي كأنها لا تعنى الموت ، بل كأنها مهمة يحمل أمانة
أدائها . أين هذا من القلق فى عينيه والتشويش الذى أحست به فى داخله
منذ أن أخبرنا باحتمال السفر ١٩)

وكانت سعادة صفية بالغة ، وهى تودعنا عند الباب تحتضن انتصار وقد
عادت صفحة رفرقة .

سألتى زوجتى قبل أن نصل إلى مسكتنا

- (ماذا فعلت بالبيت ١٩)

تجاهلت المزاح فى تساؤلها ، واجبت :

- (إنها بنت أبيها ، حقاً ا) .

... فماذا أكتب لصديق عمرى فى خطاب يحمله إليه كيس البريد

الحرى ؟

وماذا يجدى أن أكتب له أفكاراً يكابدها هو نفسه ، وربما بدرجة أكثر

حدة مناً ؟

ولكى أريح زوجتى ، اشتريت بطاقة بريدية مصورة .. اخترتها تحمل

صورة ملونة لأحمس فى عربته الحربية ، يدوس الغزاة . وفى السطور

القليلة المخصصة للكتابة على ظهرها ، جرى قلمي بكلمات قليلة :

عزيزى نبيل .. عد إلينا سالماً ،،،

سمك مشوى

ناخرت قليلاً عن موعد الانصراف ، وكان يجب أن أغادر المكتب مبكراً ، فقائمة الاحتياجات طويلة . وأنا بطبعى لا أحب العجلة ، ولكنى - إزاء التأخير الذى حدث - وجدت خطواتى تتسارع تحت الشمس التى لا تزال لاسعة . وكنت أفكر فى كل الأشياء معاً ، غير أن أشد ما أزعجنى أن تصل عربة المدرسة ، ولا يجدنى أبناى فى البيت ، وهما لا يحتفظان بمفتاح للباب ، وأمهما تزور الطبيب اليوم .

استرحت كثيراً حين وجدت متجر الأسماك لم يفتح بعد ، فوجه من السمك هى الحل .. سريعة ، وتصل إلى المائدة جاهزة . لكن المزيج أن شواية المتجر لم تعد تعمل ، وتبعد أقرب شواية مسيرة عشر دقائق . وكان على^٤ أن أبدأ بشراء الأسماك أولاً قبل أن تنفذ ويزداد تعقد الأمور .

كنت أظن أن الفوز بكيس الأسماك سيجعل الطمانينة تسكن قلبي ،
غير أنني ، وأنا أغادر المتجر ذا الروائح النفاذة ، عجزت عن التخلص من
القلق ، بل عاد التوتر يداهمنى بعد أن حسبته زابلتى وقد انتهت المناقشة
وتركت المكتب ، فاضطربت بنود الخطة أمام عيني وأنا أراجعها .. ولكن
البداية يجب أن تكون الاتجاه إلى شوايه أخرى بعد أن خذلتنى شوايه
المتجر . خذلتنى شريكاً أيضاً .. نسي كل شئ .. العلاقات الأسرية ،
والزمالة فى الجامعة والجيش ، ثم المكتب المشترك .. وأنا الذى كنت أرى
علاقتنا فريدة فى زمن يلهث فيه الجميع . على أى حال ، يجب أن أعاود
تنظيم خط سيرى لأصل قبل عربة المدرسة . والأفضل ، أن أستغل الدقائق
العشر ، وأشتري بعض الطلبات فى طريقى إلى الشوايه .. لأتخلص أولاً
من مهمة شراء الخبز ، فأميل إلى المخبز القريب . سيجعلنى ذلك أترك
الشارع إلى زقاق ضيق ينتهى بالمخبز . لن يتغير اتجاهى ، وإن كنت
سأضطر إلى الخوض فى أكوام القمامة على جانبي الزقاق .. لا يهم ...
المهم أن أنتهى من الخبز ، ثم أسرع إلى الشوايه .. وأثناء الشئ ، يمكننى أن
أشتري بقية القائمة ، وسيكون من السهل شراء الخضروات والفاكهة من
السوق المحيطة بموقع الشوايه . وهكذا ، لا يتبقى سوى المنظفات ، وهذه -
اقتصاداً للوقت والجهد - اشتريها من المتجر أسفل البيت .

كيف تترك كل هذه الأكوام حتى تنصاعد منها رائحة النتن ... تطل
عليها نوافذ مفتوحة .. ألا يشمون ؟ ويفتح باب مدرسة فى نفس الزقاق ..
يدخل الأطفال ويخرجون فوق النفايات والأوساخ .. الزقاق خال الآن ،

وعلى أن أقطعه ، وصولاً إلى المخبز ، بسرعة ، فليس بيدي ما أفعله من أجل نظافته ، ويكفيني المنغصات التي بدأت تحلُّ في سماء علاقتي العملية برشدي ، الذي ينهمني بالتخاذل والخوف والتسبب في وقف حال المكتب نتيجة تقديراتي السيئة للأمر .. حسناً يا رشدي .. أنا أسمىه الحرص والثاني في دراسة العمليات .. فهل يكون المقابل أن تستأثر لنفسك بالصفقات مستغلاً اسم المكتب ؟

- بكرة ٦ أكتوبر ...

جعلني الصوت اتبه .. هل هي مشاركة في حوارى الداخلى ؟ . ولم يكن فى نيتى أن أتوقف فى هذا الوقت الضيق من منتصف النهار . كنت أخطو أمام باب المدرسة تماماً . كان مفتوحاً ، ولا يزيد طوله عن أربع خطوات من خطواتى السريعة .. سمعت الصوت بعد الخطوة الأولى ، ثم قطعت الثانية وأنا أفكر فى أنتى لا يمكن أن أكون طرفاً فى أى حوار بهذا الزقاق القذر .. ولم أخط الثالثة ، فقد التفتُّ إلى مصدر الصوت ، فوجدتها تبسم ، وتكرر الكلمات القليلة فى ثقة وهلوه ، وكأنها كائن من كوكب للفرح ، جاء ليقول لى تلك الكلمات . احتوتها عيناي ، وهى تقف بالباب ، والماء الأسود ذو الرائحة الكريهة يجرى بينى وبينها .. شعرها قصير كأنها ولد ، ولكنها بنت .. لا شئ يبدو واضحاً فى وجهها ، فكل الملامح دقيقة ومثبَّعة بالابتسام والسكينة .

توقفت تماماً ، واستدرت لأواجهها . قالتها مرة ثالثة . وهنا ، فقط ،

أدركت حقاً أن الغد هو السادس من أكتوبر . وكانت لا تحرك يديها أو رأسها ، ولا يهتز جسمها .. واقفة بتسم ، ولا تمل من الدق على ذاكرتي المنهكة التي ضاع يوم السادس من أكتوبر في أركانها المظلمة .

تخطيت جدول الماء الأسن ، واقتربت منها ، فلم تتعد أو تجفل كما يفعل الصغار عند اقتراب الغرباء كانت ثابتة مستمرة تمطي ابتسامتها الناصعة . الغيت ، وأنا أخطو إليها ، فكرة أن أسألها ماذا تعرف عن ٦ أكتوبر .. اكتفيت بما تأكد في داخلي من أنها جاءت من بعيد لتشير الاضطراب في عواطفى التي ذابت في مفردات الاستيراد والتصدير والتخليص الجمركى . حتى اسمها ، لم أجدنى بحاجة لأن أعرفه . فقط ، تمنيت أن يكون جميلاً كوجهها الذى هبط على ذلك الزقاق .

وحيث اقتربت منها أكثر ، وانحنيت إليها ، خفت أن ألمسها وأربت على كتفها .. كانت هشة حتى ليبدو أن مجرد وقوفها على قدميها مقلرة غير عادية . كان الزى المدرسى نظيفاً ، يخرج منه أرفع ساقين رأيتهما لطفل .

قلت لها : كل سنة وأنت طيبة ، فاهتزت رموش عينيها واتسع إشعاع ابتسامة الوجه . لم أستطع أن استخلص مزيداً من صدحات عواطفى ، وتمنيت أن تلحظ هى أن وجهى يتسم مثل وجهها ، وأن قناع الجمود اللصيق به يتشقق ويتساقط بن أكوام القمامة فى الزقاق ، أمام باب المدرسة .

تمنيت أن تطول لحظات علاقتنا فى ذلك الموقع المنفر ، ولم أكن أدري

أننى أنهى كل شئ حين أخرجت الجنيه من جيبي ، وعرضته عليها ، وبي محسب من أن يريد وجهها ، وتفر من وجهي درءاً للإهانة .. ولكنها أطلقت كفها الضميلة لتختطف الورقة من بين إصبعي ، وتتساءل في ذهول: جنيه كامل ؟ .

كنت أريد أن أجيب : إنه لك ، ولكنها لم تأبه لإجابة منى .. قالت في تلهف : سأشترى ساندوتش فول .. وكيلو جواقة ... !

ثم ، بنفس اللفظة : لا ... لا .. أقول لك ... سأعطيه لأمي لتشتري لنا سمكاً .. نحن لا نأكل السمك ..

وفي خلال ذلك كله ، تبذلت الرقة فيها ، وانضحت علامات سوء التغذية في وجهها وجلدها المتطفيئ ، ثم خلقتى واقفاً يباب المدرسة ، ولا أدري كيف اختفت في الزقاق ...

وحين اجتمعنا حول السمك المشوى ، كنا نأكل - كعادتنا - في صمت .. رفعت رأسي إليهم وقلت : غداً ٦ أكتوبر ...

قالت زوجتي التي لم تكن تأكل بسبب ضررها المخلوع :

- "فعلاً .. كل سنة وأنت طيب .."

وتوقعت من ابني مجاملة مماثلة ، ولكنها كانا منهماكين في تقشير الأسماك والتهامها .. وجهت إليهما سؤالاً : هل كنتما تذكوران المناسبة ؟

قال الأكبر مؤكداً : طبعاً يا أمي ... إنه يوم عطلة !

وبعد قليل ، قال الأصغر : وككل سنة ... ستحكي لنا في المساء
قصتك في الحرب ...

أصدر الكبير صيحة احتجاج ، وقال بصوته الأخذ في الاصطباغ
بالخشونة : أنا لا أريد أن أسمع قصصاً .. سمعتها بما فيه الكفاية ..
سأجلس أمام التلفزيون ..

وبالرغم من أنني أغفر له الكثير من عتفه ، وهو يتحول من طفل إلى
شاب ، إلا أنني قاومت رغبة شديدة في صفعه .. ثم إنني لم أكن لأقوى
على صفعه ، فقد تعاظم إحساسي بالاجهاد ، وكنت أقوم من مقعدى
مغادراً المائدة محاذراً أن يلحظوا تجمع الدموع في عيني .

ظلام

لحظة أن صفق الباب ، داهمني ظلام يهس متخابثاً ، يوهم بانتظار طويل للضوء من جديد . وكان عقلي - برغم كل شيء - لا يزال يومض ، يؤانسني ، ويفاجئني أن بإمكانه أن يتساءل عن مدى صحة قوانين الطبيعة التي تعطى للأشياء استقرارها . وكان - أيضاً - لا يزال قادراً على ضبط إيقاع الزمن ليرى - في الجب - أن تلك الدقائق ، بالضبط ، هي بداية حصاة الكيمياء في ثانية خامس ... وكان يجب أن أدخل الآن من باب حجرة الدراسة لأبدأ في ترويض الأولاد قبل أن أتمكن من التحدث إليهم عن مستويات الطاقة الالكترونية في الذرة ...

وقبل نصف ساعة ، تقريباً ، كان المفروض أنني أفضى بعض الوقت متجولاً - كمواطن عربي حر ، يعيش على أرض لكل العرب ، تلونها شعارات الثورة - في سوق للملابس ، أبحث عن غطاء للرأس لطفلي ، طلبته أمه أحمر ...

ومنذ ساعة ، لا أكثر ، كنت أعادر باب مسكني ، بعد معاشات ، طالت ، مع طفلي وأمه . شددت عليها بتعليماتي ، ألا تفتح الباب مهما كان الطارق .

سرت في طريق كل يوم .. ربع ساعة إلى المدرسة .

ابتسمت كثيراً في الطريق - لا يحدث ذلك كثيراً - وأطلقت حمامم نشوة ونزق ... صاحيتي تفاصيل ليلة الأمس ، وتغلبت ضحكتي على تحيرى في كيفية إبلاغ أحمد إبراهيم بخبر انهيار السرير الذى صنعه لنا من مخلفات الحديد والأخشاب . وتخيلته يطلق قهقهاته العالية ، ويسمعى ، نكته أو اثنتين ، ثم يعود لقهقهاته دون أن يسأل عن سبب تفكك وصلات السرير ، قبل أن يأتى بأدواته لينهمك فى تربيط كومة الحديد .

وعند نقطة بعينها فى الطريق - يحدث ذلك كل يوم - أبدأ فى إطلاق صفارات تخلط الحاناً عديدة لعبد الخليم ...

معظم الطريق خال ، وبلا ملامح .. فى ذلك المكان - حيث أبدأ أصفر - يبدأ جدار طويل عال ، يوازيه ، للداخل ، صف من الأشجار متكاثفة الأغصان ، مليئة بأعشاش العصافير . لم أكن أرى العصافير ، ولكن أصواتها كانت تأتبنى عالية ، ولم تكن أصوات غناء .. كانت متصلة وحادة جداً ، وليس هكذا تغنى العصافير ...

لجأت إلى رصيف ضيق يجرى مع الجدار الكئيب . لم أنظر إلى الخلف ، ولكنى اكتشيت بإفصاح الطريق - وهو متسع وخال - للسائق

الذى كان يطلق نفيراً مستمراً ، ومتهى أملى الأ أفسد صباحاً حلواً يندر أن تبدأ به الأيام ...

حاذتني السيارة . كان بها راكبان . إلى جوار القائد ، واحد من طلبة المدرسة أعرفه . لم يتحدث الطالب ، ولكن قائد السيارة كان يتلفظ فى نجهم واضح ، وتبينت فى اللهجة ، التى كانت لا تزال مستعصية على ، بعض الشنائم . تباطأت ، فتباطأت السيارة . قال :

- "انزل عن الرصيف لأطيح بك إلى جهنم !"

وكتت ، منذ اللحظة الأولى ، أدرك سبب العداء . وهما يستفزانتى ، وقد انفرداى فى طريق طويل مهجور أسرعحت الخطى ، ثم بدأت أعدو فوق الرصيف غير المستوى .

تابعنى صباحهما :

- "مدرس جيان .. خائن كالسادات !"

وكتت خائفاً ، فهما اثنان فى سيارة ، وأنا فى العراء وحدى . ولعلنى كتت أدرك أنهما ليسا أقل خوفاً منى .. فلو كانا على درجة من الشجاعة لتمكنا منى بسهولة ، ولكنهما يلجان إلى عربتهما مكتفين بالصياح والإهانات .

وكان شارع السوق أول شارع يأتى متفرعاً من الطريق ، فأسرعت أدخله ، آملاً أن أنخلص من المطاردة ، ولكنى رأيت السيارة تنهادى إلى جانى .

وصلت إلى باب السوق ، فاجتزته ، حاسباً أنني أقلتُ من عبء ثقيل وتوتر ، مقسماً الأآدع هذا السلوك الإجرامى يمر بلا حساب . وبدأت أبحث عن الطاقة الحمراء بسرعة ، لأجد بعض الوقت أقابل فيه مدير المدرسة ، وأنقل له أحداث هذا الصباح ، قبل أن يذق الجرس وأدخل إلى ثانية خامس .

كنت أمر بين أرفق المعروضات مفتقداً التركيز وحماس بداية الصباح ، وقد اختلطت أمامى كل أنواع الملابس وكل الألوان . وكنت أشعر ببعض الحزن لأننى لن أعود إلى زوجتى بغطاء الرأس الأحمر ، فقد صرت مشوشاً ، حتى أنني فكرت فى الرجوع إلى البيت والاعتذار للمدير المدرسة لانقطاعى عن العمل اليوم ، وفكرت فى نفس الوقت - فى ضرورة التوجه إلى المدرسة لمقابلة المدير ، وللتخلص من شحنة التوتر فى الشئرة مع المدرسين حول الواقعة ... ثم إن درس اليوم هام جداً ، وقد أمضيت وقتاً طويلاً فى إعدادة لأقدمه إلى عشرات من الحوش الصغيرة ، آخر ما يشغل بالها فى هذا العالم هو نظام توزيع طاقة الالكترونات فى الذرة ...

وفى محاولة أخيرة لانجاز مهمة الحصول على غطاء رأس أحمر ، سألت إحدى البائعات ، فهزت رأسها نفيماً ، فاستلرت ، وقد انتهت جولتى فى سوق الملابس خارجاً إلى المدرسة .

رأيتهما على بعد أمتار منى ، يجادثان مشغولاً بالسوق . اقترب الثلاثة ..

طالب السنة الثالثة قصير القامة ، ومرافقه قائد السيارة الذى سبنى كثيراً ، وكان له وجه لحيم وبشرة بيضاء مليئة بالحفر ، يتقدمها الرجل الذى يبدو أنه مدير السوق ، قال :

- "ماذا تفعل هنا يا مصرى ؟

تشبعت لهجة وصيغة السؤال بالعداء .

ماذا يفعل البشر - مصريون وغير مصريين - فى سوق للملابس ؟

وثمة مصريون ومصريات كثيرون يتلکاون ، مع سحن افريقية وأوروبية، بين المعروضات ، لم يكتف المطاردان بما فعلاه ، وها هما يأتیان فى استعراض للقوة ، يبدأ- فى سفور - باستفزازى حاولت أن ابتم ، وقلت :

- جئت أبحث لطفلى عن غطاء رأس أحمر !

اكتشفت - متأخراً - بلاهتى وأنا أحاول التلطف مع أنياب حادة بارزة. لم يتكلم المطاردان ، واستمر مستول السوق يلاحقنى :

- وماذا تخفى تحت سترتك ؟

فاجأنى السؤال ، وفكرت فى مجموعة من الأشياء دفعتنى محصلتها إلى الضحك بقوة ، حتى دمعت عينائى . صاح بى مدير السوق بوقف ضحكى :

- ماذا يضحك أيها السارق ؟

فتوقفت عن ضحكى ، وعمدت إلى سترتى أخلعها . كان ذلك ردى على الاتهام . ثم عدت ، فارتديتها ، وأخذت أصلح هندامى ، وقد تجمع عدد من رواد السوق ، شدهم المشهد الذى يكسر رتابة صباحاتهم فى حياة جامدة خالية من الجمال والمتعة .

طردت الابتسامة البلهاء التى تخرج كزائفة دودية عند مثل هذه المواقف التى لا تجدى معها أى محاولة لإضفاء اللطف عليها والتهوين من قبحها .
ارتفع صوتى ليسمعه الجميع ، قلت :

- أيها الأخ المدير ، أنت تعلم جيداً أننى لم أسرق شيئاً ، فأنا مدرس محترم ، جئت أعلم أبناءكم ..وقد طاردنى هذا الشاب ومرافقه فى الطريق إلى هنا ، وأهانانى طويلاً ثم دخلا ورائى ، ونجحاً فى استعدائك على .. كل ذلك لأننى منعت هذا الطالب من الغش فى الامتحان بالأمس ، وأصررت على طرده !"

وكنت متشياً ، أحسب أن الضوء اقتصر المكان .

ازداد نجهم المدير ، وبدأ يبعد المتجمعين حول المشهد ، فأدركت أنه يعد العدة لجولة أخرى ، وأنه - أمام التعرية - يبعد الأنظار ، ليعود إلى مكمنه فى الظلام ، مصراً على محاصرتى ، وظهري إلى حائط كتيب ، خلفه صفوف من الأشجار لا تغنى عسافيرها .

كان يتحدث كآلة مطاطية :

- "أنت سارق ، وتتعمد إثارة الناس فى مكان عام .. الشرطة قادمة !"

هنا ، أسقطتُ كل ما حولي من قائمة الموجودات . وظللت واقفاً معهم
لدقائق قليلة ، تبدو من بعيد - كأصدقاء كفّ الكلام بينهم . ولما جاء رجال
الشرطة ، أشار المدير إليّ ، فاقترادوني إلى عربة فاخرة . سأظل - طيلة
عمرى - أؤكد على أنني سأنسى ما أضافوه من إهانات ، وأنى سأنشكك
كثيراً قبل أن أصدق ، وإن كنت أشك في قدرتي على نسيان صفة على
وجهي ، فاجأني بها سائق عربة الشرطة وهو يسب - في حماس واضح -
شرف أمي ، ثم ركلة منه ، وهو يدفعني إلى هذا المكان الذي مرّ علىّ فيه
دهر ثقيل ...



(٢)

* الماء يرتفع *

* بيت الأنفوشي *

* جمال عبد الناصر *

* خـ *

* اركبوا درأجاتكم ا *



الماء يرتفع

يحرمنى ذلك الجهاز الإحساس المبهج بوقع ملامسة الهواء الطبيعى لصفحة وجهى . وهذه الحجرة المسجونة داخل مساحات الزجاج والألومنيوم ، تطل ، من ثلاث جهات ، على البحر ... أحبها ، حجرة مختبرى ، وأقضى بها معظم يومى ، أعمل وأقرأ وأكتب وأجالس أصدقائى ، فلما ازدحمت بالأجهزة وحلَّ بها مكيف الهواء ، صارت محبباً ، وصرت مكرهاً على أن أقضى بها وقتاً أطول ، دون مخالطة ، منكباً على مراقبة مستويات التلوث ، أنصت إلى طابعة الحاسوب ، وأحاور - من خلال دائرة الكترونية - أفراداً مثلى ، لا أحمل لأى منهم مودة الأصدقاء ، يجلسون متناثرين على امتداد حوض البحر المتوسط ، فى مثل هله الحجرة ، يرصدون أحوال هذا البحر الذى ، نعرف جميعاً ، أنه يحتضر .

أرفع سماعة الهانف الداخلي ، وأجد من يمازحني : هل يمكننا أن
نقضى معك بعض الوقت في مشرحة البحر المتوسط ؟!

يتركون مختبراتهم ، وينزلون إلى ، يتطلعون إلى مكتبتى ، ويقراون
أسماء هوميروس و فرجيل وحسين فوزى ونيكوس كازانتساكس وأبير
كامو وناظم حكمت وكاتب ياسين وفديريكو جارسيا لوركا وحننا مينا
وكونستانتين كافافى . لا يعرفونهم ، ويقولون : هذه أغرب مكتبة يحتويها
مختبر للبيئة البحرية !

وكيف أفهم هذا البحر بدون هؤلاء ؟ أقول لهم . وهل كان هؤلاء
يتبنون فى غير وجود هذا البحر ؟ . أسألهم ، فكيف - يا أصدقاء - يمكن
الفصل بين هؤلاء الأبناء وكيمياء مياهه ؟ . وحين يشيخ وتنتشر البثور فى
جسمه ، لا نستطيع أن ندعى أننا وحدنا أطباؤه ... هؤلاء عرفوه قبلنا ،
زرقة صاقية لا شائبة بها ، وتغنوا به ، أو رأوا سفنه لحمل الجنند من شماله
إلى جنوبه ، أو من جنوبه إلى شماله ، واحتفظوا لنا بصور غائمة لقلدائف
مشتعلة وسهام تعرف طريقها إلى قلوب كل الأطراف .. فهل تعتقدون أن
هذه الأجهزة التى تزاحمنى غرفتى تكفى وحدها لرسم دقائق قلبه وتتبع
سريان السم فى أحشائه ؟ .. اشربوا شايبكم وامضوا من حيث جتم !

لم يزرنى أحد طيلة هذا النهار ، فكان الوقت كله للعمل ، حتى غابت
الشمس واكتشفت أننى لم أكل شيئاً منذ غادرت البيت فى الصباح ،
مكتفياً بالمشروبات . خرجت من دائرة الانغماس فى العمل ، وأعددت

بعض الطعام والشراب ، وتركت المختبر إلى شرفة متسعة تطل على أحواض تجريب متصلة بالبحر . جلست فى مقعد مريح ، اطلب الاسترخاء ، أكل وأشرب .

لم أحصل على الراحة المرجوة . لم يكن الهواء لطيفاً .. كان ساكناً ، وعبثاً ثقيلأ على صدرى . لم تكن أصوات تلاطم الأمواج الصغيرة وتصارعها عند فتحات الأحواض واضحة ، وكنت أنتقد تلك الأصوات الفضية الموشوشة لدى تراجع الموجات معربة خط الرمال الضيق . كان من السهل اكتشاف هذا التغير الخبيث ، ولكنى بقيت ، لدقائق طويلة ، بتماظم بداخلى إحساس بأن ذلك ليس كل شئ ، وأن ثمة خلأ يكمن هنا أو هناك - ربما يكون مدفوناً عند القاع - ويسرّب تلك القلقلة نصب فى الصدر ضيقاً .

لمحت شبحاً يتجول فى الممرات بين أحواض التجارب ، يميزه طوله الفارع وانحناءته . صحت : يا عم فلفل . توقف . استدار ، ورفع رأسه ، سأله : ماذا تفعل عندك ؟ . لم يجب . انسحب مخضياً عن عيني . وكما توقعت ، سمعت خطواته البطيئة إلى الخلف منى . جاء يجينى بصوته الواهن : الجو مخنوق والبحر عال . قلت : ماذا تعنى .. لا أرى موجأ ؟! . استمر كأنه لم يسمعى : الأسماك تتقاذز هاربة ا وصمت قليلاً ليرفع عينيه ويشير إلى السماء : وانظر هل صادفت ليلأ أصفر من قبل ؟!

واهتز ينادرنى ، تزحف قدامه على الأرض ، ويسى ميل شديد

لاستيقانه، غير أنى تركته يتعد مستسلماً لدهشة كبيرة أثارها كلماته . كان لسانه ثقيلاً ، وكان حزنه غريباً عليه ، وهو الدائم الابتسام ، فى إقبال على الحياة ، أو غير مكترث بها وقد تهيأت لمغادرته ، وهو الصامت غالباً ، لا يكاد يرد نحية ، يأتى وينطق كلمات كالشعر ، كأنه صعد إلى برسالة ، ألقاها بين يديّ وانصرف . هذا العجوز فلفل .. كان يجب أن يتمهل ، وأنا منتهك لحد أننى أكسل عن محاولة اللحاق به وإعادةه ليجالسنى فى الشرفة، أريده أن يقول الكلمات ثانية ، لأتأكد من أنها لم تكن غريبة على .. كانت تتردد ، هنا أو هناك ، قبل أن تلتقطها أذنانى من فمه الأورد .. لا أقول بأنها كلماتى ، ولكنى - قبل قليل - كنت أحتاج إلى من أسر إليه يخوفنى من تشقق وجه القمر وأنهياره فى الفضاء ، وكنت أداور هاجساً يخاتلنى : لماذا هو قريب إلى هذه الدرجة فى هذه الساعة ؟ ، وكان أصفر ، كوجه امرأة تعانى داء المرارة . ولكن .. هل استيع ذلك أن يصطبغ الظلام بالصفرة ؟ . ذلك ما أستطيع ملاحظته الآن .. فهل سبقنى فلفل إلى فكرة إصفرار الليل ، أم أنتى كنت أحببها ، ربما خزيماً من ذهن يقترب به الإجهاد من حافة التهاوى ؟

تأكد لدى احتياجى لفلفل ، ودفعنى ذلك إلى أن أجد القلدره على رفع صوتى صائحاً باسمه . تردد صياحى فى المكان ، ثم - فجأة - تدلقت أصوات عالية قضت على أى أمل فى أن يسمعى فلفل فيأتى . أصوات آلات نفخ ونحاسيات ، وإيقاع أجش متسارع ، وصراخ بشر ..

كهرباء تفرق أذنى ، تدفعنى لأسقط فى حلزون معدنى . فجأة ، لاح

فلفل أمام مقعدى . صحت به حانقاً : ببح صوتى من النداء عليك . قال :
يجب أن نغادر المبنى . عدت أصيبح : أنا الذى أقرر متى أترك مختبرى ..
افتح لى باب الاستراحة لأغفو قليلاً .

عاد يصرُّ على ضرورة مغادرة المبنى . استمر صياحى : وما هذه
الأصوات المنفّرة ؟ .. هل عدت تؤجر المكان للداعرين ؟ . قال إنهم
يتقاطرون .. حشود لم تر عيني مثلها ! تصاعد غضبى : عم تتحدث ؟ .
رفع يديه مستسلماً : احاطوا بالمبنى ، واقتحموا على البوابة !

مددت يدي أجذبه . تباعد : ليس الذنب ذنبى .. إنهم يفترشون
الطرقات والسلالم .. سوف تراهم .. ستراهم ، سيجيئون إليك .. لا
تخف .. إنهم مسالمون !

أعانتى على الوقوف ، وقادنى لأطلّ على أحواض التجارب .. قال :
انظر .. المساحيط يملأون الأحواض !

لم يكن يخرف .. كان الضوء الباهت يحيط بأجامهم غير المنفّرة ،
فى الأحواض ، وعلى الممرات ، وفى المساحة المنظورة حول المبنى ،
ويطفون مساحات المياه ، يطفون فى شبه سكون .

قبل كل شئ ، يجب أن أتماسك وأسرع إلى الشبكة الالكترونية أثبت ما
رصدته عيناي . التفتُّ طالباً مساعدة فلفل . كان قد اختفى . نجحت
بصعوبة فى التثبيت بمقعدى ، وقد تخاذلت ساقاي . ارتطمت بالمقعد
جالساً . سمعت صوت فلفل إلى الخلف منى ، يقول : هذا هو ..

وقبل أن انهياً للالتفات إليه ، وجدتهم يحيطون بي . لم تخفنى
هياتهم.. لا ادعى الشجاعة ، ولكن نوعاً من الشعور بالتعاطف والألفة
يتسرب ليملاً الفجوات بينى وبينهم . بل إننى لم آخذ فى تأمل أنصافهم
السفلية بدرجة كبيرة من الإنكار والدهشة .. ربما بشئ من الانبهار الذى
كان يتوفر لى فى زمن مضى ، وأنا أحاول - فى كراسة الرسم المدرسية -
تقليد أشكالهم التى كان عمى الصغير يحترف رسمها على واجهات بيوت
الحجاج .

سمعت صوتاً يقول : أنت المشارك الوطنى فى خطة مراقبة أحوال
البحر المتوسط .. لم يكن يسأل . كان يؤكد . لم يكن صوتاً لأحدهم ، أو
للمجموعة معاً .. بل لعلهم لم تتحرك لهم شفاه .. ومع ذلك ، أجب :
هو أنا .

عادت أذناى تسمعان الصوت : أغلق ملف الخطة .. انتهى كل شئ ..
لا أمل . صحت مفجوعاً : هل حدث ؟

همهوا . كان صدرى يتصدع ، وكنت بحاجة إلى دموع . قلت :
كنت أحاول التماسك وأنا أراه يموت !

سألوا : عنم تتكلم ؟ . قلت : بحرنا .. المتوسط ؟

تضاحكوا : بحرنا ؟ .. بحرنا ؟ .. أى متوسط ؟

وصمتوا ، ينتظرون ردى ، وأنا التقط إشارات غريبة وأشم فى
إحاطتهم بى قلقاً وريبة . وكانوا ينسحبون ويقفزون إلى خارج الشرفة حين

تقدم منى فلفل .. كان يرجونى : الماء يرتفع يا دكتور .. إنج بنفسك !
وأضحكنى أن رأيت القشور تغطى نصفه الأسفل ، وقلت له : كيف
ستقود طالبي المتعة إلى الردهات الليلية ؟
وكان يبدو صادقاً وهو يتراجع إلى سور الشرفة ، ويقول : لقد أدبت
واجبي وحذرتك .. هذا زمان الماء !

وكنت أرى الماء يرتفع فعلاً ، والأرض تسرع إلى نهايتها ، وأنا لا
أرغب فى بديل عن أطرافى أو عن رمتين لا تكفان عن العمل ، وإننى أرى
خيوط التلاعب ، وإننى أدفع إلى جحيم من الهلع لأستسلم - فى النهاية -
إلى حياة الماء . حسناً .. لتذهب المياه إلى ذرى الجبال - صحت ، بعد
اختفاء آخر الهارين إلى الماء - فسأبقى ، وحدى ، آخر المؤمنين باليابس ،
مكتفياً بطوف صغير يحتفظ بصفحة وجهى فى صحب الشمس والهواء ..
طوف من ورق وأحبار يعيش فى ركن من حجرتى ، رأوه وسخروا منه ،
أراه يتهادى إلى ، وأسمع همسه الرقيق : تنهداً .. لا تخف ، فتهدأ نفسى ،
ويتسرب القلق إلى الماء الزاحف مرتفعاً إلى مستوى كفى ، ويهتز
جسدى ، وأرى لحظة النجاة ..

بيت الأنفوشي

تغيرت ملامح المكان ...

اختضت البلاطات البازليّة الصغيرة ، وحل الأسفلت الناعم مكانها .
حتى صوت عجلات الترام ، لم يعد بنفس الرتابة القديمة . لكن ركناً في
الذاكرة لا يزال يخفى شيئاً من تلك الألفة القديمة ، ويجعل القدمين لا
تشعران بالغرابة في خطوهما ، برغم شحة الضوء ، وبرغم غبش السنين
الطويلة . فلا يزال الزقاق محتفظاً بذلك الميل المحسوس عند التقائه
بالشارع الكبير .. لتترلق مياه المطر إلى الخارج ، حاملة مراكبنا ، تندفع إلى
المجرى العام الموازي للرصيف ، ونحن وراءها نتصايح ونترقب : أى منا
ستصمد مركبه في وجه الريح والأمطار ، قبل أن تبتلعها الدوامة فوق
البالوعة المواجهة لخلقة الأسماك ...

وفي جيبي سلسلة يزيد عدد المفاتيح فيها عن عشرة . أخذتها كلها ،
بعد أن عجز الجميع عن تحديد أيها الخاص بحجرة جدي في بيت

الأنفوشى . وكنت وانقأ من أنتى سأصل إلى الحجره دون حاجة لمفتاح ...
كان للبيت باب ضخيم محلى بنجمات خشبية صغيرة ، استعصت على
محاولاتى المتكررة لانزاعها ، ومفصلتان كبيرتان ، كنا نصلهما بحبل
نتأرجح عليه . لم يكن جدى يقفل الباب ، حتى بالليل ، وكنا نتساءل عن
فائدة الرتاج الحديدى الضخم الذى رأيناه يركبه بيديه .

ويجب أن اعترف بأن ثمة نشوشاً ، وقلداً من القلق ، وإحساساً مؤثراً
يشكك فى جدوى ما أقعله ، ليس بسبب ما وجدته من معارضة إخوتى ،
أو لتخوف أمى وزوجتى من خطورة الإقيال على هذه المغامرة المجتونة ،
باتحام حجرة مغلقة منذ ثلاثين سنة ، فى منزل مهجور ، نصف أسقفه
متهلهم ، وتهتز جدرانه عند مرور الترام على بعد مائة متر . .

قد تكون الرائحة هى السبب ... أحشاء السمك وقشور الفاكهة
والعادم من الخضروات ، تتراكم طول النهار ، لتبدأ فى إطلاق روائحها
ليلاً ، حتى يمر عمال النظافة فى الصباح ويزيلونها .

نعم .. هى الرائحة .. رائحة التحلل الحامضية ، تقنحم أنفى سائدة . لم
تكن - من قبل - وحدها . كان هناك البحر ، يعدُّ لنا خليطاً حميماً من
رذاذه وملحه وعطر الأعشاب واليود ، يسرى فى الهواء لتغتسل به
الشوارع والبيوت ، وتعبّ منه الرئات ، وتفتح له المسام . كما أنى - وقد
دخلت الزقاق فعلاً - لا تستقبلنى رائحة السردين ...

نعم ... نعم رائحة السردين ...

السردين المشوى فى نخالة الدقيق ، والسردين المصفوف فى الصوانى
والصاجات متبلاً وأنصاف ثمار الليمون موزعة بين صفوفه ، نحمله إلى
المخبز البلدى فى نهاية الزقاق وتؤكد من أن الخباز المعجوز رسم أسماءنا
على حواف الصوانى والصاجات المتشابهة ، قبل أن يدخلها إلى النار .

هى - إذن - الرائحة ... تقول الذاكرة .

كذلك ، يبدو الزقاق موحشاً ، لم أقابل شخصاً واحداً منذ دخلته .
صحيح أن البرد شديد ، ولكن الليل لم يتقدم . لم تكن الحركة تهدأ فيه .
على الأقل ، كنت تسمع صوت مذياع . أين المصباح الذى علقه جدى فى
حلق الباب ، وكان يطفئه عند عودته من المسجد فجراً ؟ . لا أحد يسعل ،
ليعرف السائر بالليل أنه ليس وحده .

وكنت امام الباب تماماً ، ثلاثون عاماً لا تجملتنى أنسى أنه عاشر باب إلى
اليمن . أتعرّف - فى الضوء الشحيح - على النوافذ المغلقة التى كانت
متآكلة الأخشاب دائماً . فقد الباب نجماته الخشبية التى تحدتني زمناً طويلاً
. واضح أنه مغلق ، فثمة لوح خشبى عريض مثبت على المصراعين ، يربط
بينهما ، لا أعرف أن أحداً منا أغلق أو طلب إغلاق الباب بهذا الشكل .

دفعت الباب . لم يستجب . هززه فأصدر ضجة وصريراً . عدت أهزه
وأدق خشبه فتعالت أصوات الضجة . سمعت حركة فى نافذة الدور
الأرضى إلى الخلف منى . التفت . رأيت شقاً ضيقاً مفتوحاً ، لم أعرف
من وراءه . شككت فى أن يكون جاراً قديماً .. لا يمكن أن يكون رأتى ثم

يعود ويفلق الشق دون أن يتطرق بحرف .

طالت وقفتى أمام الباب ، وقد أجهدتى المحاولات ، وأزعجنى
هاجس يلاحقنى بأن ثمة من يسمعونى ويعرفوننى ويقبعون خلف النوافذ
والأبواب . وكنت أنعى هؤلاء الذين كانوا يميزون رائحة الغريب إذا ساقته
قدماءه إلى شبكة الأزقة الضيقة ، ويتدخلون فيما يعينهم وما لا يعينهم .
ماذا جرى لهم ؟

أجابت يد صغيرة لطفل وجدته أمامى فجأة . لم أتبين ملامحه جيداً ،
فربما كان قزماً مسناً ، لم يتكلم ، وإنما سحبنى من يدى إلى باب البيت
المجاور ، يعرف طريقه فى الظلام ، إلى باب صغير تحت سلالم البيت ،
دفعه ، وتركتى أدخل ، وعاد إلى الظلام .

مشيت فى عمر جانى طويل ، أفضى إلى منور خلفى ، تطل عليه
الحجرات الخلفية فى بيت جدى ، كان المكان أشد إظلاماً من الزقاق ، ولم
يزايلنى ذلك الوسواس بأن ثمة من يرانى ويسمعنى ، فجأة ، وجدت شيئاً
يتدلى أمام وجهى . كان سلماً من الحبال . وجاء صوت : إصعد إن شئت .

تسلقت الحبال المهترئة ، وامتدت يد قوية شدتنى لأدخل من خلال نافذة
كبيرة لحجرة كان يسكنها أحد أعمامى . لم يكن لها سقف . فقد الدور
العلوى معالنه تماماً . أين الممر الطويل وحجرات الأبناء على جانبيه ؟

قال الرجل الضخم ، بعد أن سحب السلم : أمامى !

سرت أمامه . نزلنا سلماً غير الذى أحرفه . كان الدور السفلى حالكأ

تحسنت المكان مستعيناً بخبرتي السابقة . وعند موقع دورة المياه ، تدفق الضوء حين فتح باب جرار . دخلت . أرض مفروشة . جدران مبطنه بالخشب . إضاءة بلا مصدر ظاهر . دفء . ثلاثة رجال يجلسون على حشائبا ، وفي ركن بعيد ، مجلس امرأة أمام موقد ، ومنهمكة فى إعداد الطعام ، غير ملتفتة لدخولى .

ويبدو أن تحديقى إليها طال ، فلاحظ أحدهم دهشتى ، فقال :

- " وديلة .. إحدى زوجات الحاج صفى الدين ! "

صدق ظنى .. أصغر وآخر زوجاته . لم ينل منها الزمن كثيراً ، وكنت أحسبها رحلت مع الراحلين . قال آخر :

- تطهو لنا أرزاً بلحم السلاحف .. أكلة جدك المفضلة ! "

فهقه الأول ، وأضاف :

- " كان يستعين بها على حريمه ! "

وبقى الثالث ، أوسطهم ، صامتاً فى تجاههم . لم يدعنى أحد للجلوس ، ولم تكن هناك حشبة رابعة .

الهاجس يشارف منطقة اليقين . كانوا يرقبوننى منذ دخلت إلى الزقاق ، وربما قبل ذلك . أجهل الرجال الثلاثة ، تغلوا وجوههم من الود . أخيراً ، تكلم الثالث :

- " وما سبب الزيارة الكريمة ؟ "

قلت : "مكتبة جدى ..."

وأشرت إلى أرفق الكتب فى القاعة .

تلفتوا إلى بعضهم .تهامسوا . كانت الكتب مجلدة ، مصفوفة فى مكتبة جميلة تغطى جداراً كاملاً .

تركت "وديدة" ركنها ، وأقبلت بصينية عليها أطباق ثلاثة ، وقالت ، غير عابئة بوقفتى : قيل أن بيرد ..

أخذ الرجلان ، من اليمين وعن الشمال ، طبقين ، ونسابقا فى نقل الأرز الساخن وشرائح اللحم إلى فتحة الفم ، أما الأوسط ، فقد جلست "وديدة" أمامه ، وأخذت تطعمه بأصابعها ، فأدركت أنه لا يبصر .

كان المشهد مسلياً وسريعاً ، فلم يتعاطم قلقى .

اختضت وديدة بالأطباق الفارغة . مسح الثلاثة أنواعم بظهور أكفهم ، وبدوا متعشرين . عاد الأعمى يسألنى ، كأن حوارنا لم ينقطع :

- "ولماذا لم تفكر فى المكتبة فيما مضى من عمرك ؟ "

وكان جوابى حاضراً : "حصلت أخيراً على مسكن متسع .. وخصصت لها مكاناً فيه .."

بدا عليهم أنهم لم يقتنعوا بما قلت . أردفت :

- "ثم إن لى بها منفعة .. ستعينى فى عملى .."

قال أحد المبصرين : "وما عملك ؟ "

قلت : "أدرس التاريخ وأدرسه، ..."

سأل المبصر الآخر : "ومن أدراك أن جدك كان يحتفظ فى مكتبته بكتب التاريخ؟"

أجبت : "كنت أراه يقرأها .. وكان يروى لى بعض فصولها .."

صاح الأعمى : "تريد أن تستأثر بالمكتبة والمحاكم لا تزال مشغولة بنزاعات الورثة!".

قلت : "أنا وحدى أستحقها .. لم يطلبها غيرى .. كلهم يرونها مجرد كتب صفراء من سقط المتاع ..."

قال الأعمى : "كلهم لا يعرفون الحقيقة .. وأنت أيضاً!"

التفت إليه المبصران ، ولسا - معاً - كفيه ينبهانه إلى أمر يزعجهما .
دفع يديهما عن كفيه ، وقال فى حسم :

- "لقد أتى إلينا بقدميه .. وعليه أن يعرف!" .

وأمرنى :

- "قم إلى المكتبة .. تعرّف إلى تركة الحاج صفى الدين!"

قمت ، وقد استقر لدى دنوى من المراد . رحلت أفتح المصاريع الزجاجية ، تجرى عينائى على كعوب النجلدات السوداء اللامعة الموشاة بكتابات وشمعات مذهبة . كانت خالية من رائحة الفطر التى كانت تلازمها فى فوضى تكومها بخلوة جدى فى تلك الحجرة راكدة الهواء فوق سطح

البيت . وكنت أبتسم وأنا أنظر إلى الرجال الثلاثة ، وقد زالت غضاضتى
تجاههم . كانوا يتهامون .

قال الأعمى ، بنفاد صبر : "لا تحسبها ، بل فضاها وانظر ..."

سحبت مجلداً ضخماً . فتحت عند المتصف . الورق أبيض صقيل .
طباعة حديثة . دقتت وقرأت بعض العناوين .. كانت لموضوعات فى
البيسة . عدت إلى كعب الكتاب . كان يحمل عنواناً لمن فاطمى . امتدت
يدائى إلى غيره . تأكد الخداع . أخذت أنيش أرفف الكتب غير مصدق .
كانت صفحات بعضها صفراء مسودة ، تلاصقت إلى بعضها حتى صارت
كتلة واحدة ، يستحيل استخلاصها صفحة بصفحة . التفت إليهم مترعاً
بالتوجس :

- "ما هذا ؟ .. ماذا فعلتم بها ؟!"

قالوا : "هى .. هى .."

قلت : أرفض أن أصدق !

سأل الأعمى رفيقيه : كيف يبدو ذلك الرجل ؟

رد أحدهما : جاء راسخاً ، فلما نار شابه بعض الحمق ...

قال الأعمى ، واثقاً : سيعود إلى ثباته .. هو منأ ، بحق !

كان ذلك آخر ما توقعت . صحت : او أنتم .. ؟

لم يدعى الأعمى أتم الاستنكار فى سؤالى . قال :

- "نحن بعض أعمامك ا".

ولم أكن أمتلك قرائن التشكيك ، ولن يضيرنى قبول انتمائهم إلى مائة وعشرين ابناً وحفيداً للحاج صفى الدين . وإذا كنت لم أرهم من قبل ، فانا لا اعرف مائة - على الأقل - من اعمامى وأبنائهم .

وكان على أن أستوثق : أهكذا وجدتم الكتب ؟

قال أحدهم : بل أضفنا إلى ظاهرها حسناً منذ آلت إلينا ا

عدت أسأل : كنتم - إذن - تشاركوننى الاهتمام بها ا؟

قال الأعمى : كان اهتمامنا بها حتماً ا

سألته : ماذا تعنى ؟

أجاب : بغير تردد : هى أكل عيشنا ومركز وجودنا ا

قلت : لم أسمع عن تجارة الكتب مهنة فى العائلة ...

قال : بل تجارة اخرى أشك أنك عرفتها فى العائلة ...

قلت : أى تجارة ؟

قال : عد إلى الكتب التى فضحت سترها .. دقق فى مادتها ..

قمت إلى الكتب المتناثرة فوق كساء الأرضية القطيفى الأخضر .

للمتها ، ورحت أنفحصها . استجابت لى ، ولاحظت أن بعض صفحاتها

مثبت به أكياس من ورق رقيق ، أو من النايلون ، بحث لا تمثل إضافة

محسوسة إلى حجم الكتاب ، فيبدو ظاهره طبيعياً . انتزعت بعضها
وأخذت استشعر محتواه .

قال أحد المبصرين : لا تقربه من أنفك ..

قال الآخر : هذه هي بضاعتنا .

اضطرب صدري لهول ما اكتشفت ، فكان همي السيطرة على ما حل
بى من فوضى ، وكنت أكابد الكدر وأحاول التماسك .

ابتسم مبصر ، مسياً ترجمة ردود الأفعال المكتوبة بى ، وقال :
"هكذا!.. نعم الحفيد!"

ويدا تساؤلى - لى - بلا معنى ، مبتسراً:

- "هل كان .. وهل كانت ..؟"

فهم الأعمى ، وأجاب ، برغم النقصان :

- "هكذا كان أبونا ومعلمنا .. وهذه هي أسرتك .. مكتبته!"

وغمرتى علامات استفهام متقاطرة : وحياة الزهد ؟ والجمعية الخيرية ؟
وبناء المسجد عند بوابة ميناء الصيد ؟ وموته ساجداً فى موقع الإمام ؟
وحكاياته لى ؟ والدهشة يسكبها فى مهد وعى ؟ والدنيا التى شكلتها تحت
عباءته ؟ وألوانها التى عرفتها - أول ما عرفتها - فى خرزات مسبحته ؟
والبيت المتهدم الذى تركه لنا نتقاتل حول ستيمترات من أرضه ؟ .. رجل
بتجارته تلك ، أما كان كفيلاً بأن يفيض على أبنائه وحفدته ويغنيهم عن

ولدهشتي ، أجب الأعمى ، برغم تيقني من أنني لم أبح بما سألت :
لملك تعرف - مثلنا - كل الإجابات .. أما عن النقود ، ففى الحفظ
والصون .. أصول التجارة والأرصدة .. رهن إشارتك !

ولدهشتي ، أيضاً ، لم تكن استجابتي أن أطيح بهم قبل أن أوليهم
ظهري . قلت : تعنون .. ؟ !

قال الأعمى : لهذا قدمت .. يا صفى الدين !

كأننى لم أعرف لى إسماً من قبل ...

قال أحد البصرين : عمك الكبير ضرير ، ونحن - كما ترى -
مقعدان !

وكتت لاحظت أنهما لم يتحركا طيلة الوقت .

عاد الكسيح يقول : وأنت أملنا !

وكتت أراهم يشدوننى إليهم ، فأصابنى الفزع ، وهرولت متراجماً :
هراء .. هراء .. افتحوا الباب !

كان الأعمى هادئاً ، وهو يؤكد :

- "الباب مفتوح .. يمكنك - كما جئت - أن تذهب يا مدرس

التاريخ .. لكنك لن تهرب " !

وأخذت أصيح : لن يكون .. لن يكون .. لن تفلحوا ..

استمر - هادئاً - يقول : طريق السلامة !

صفتك الباب خلفي .

عدت إلى رائحة الرطوبة والعفن والبرد والظلام وممرات البيت المتساقط .

عدت إلى النافذة وسلم الحبال .

عدت إلى الزقاق ، وهلام الأسئلة لا يزال يتوالد . وكان أكثر ما يلح عليّ ، وخطاي تتسارع على أسفلت شارع البحر : هل هم وراء إظلام الزقاق ؟ . هل رتبوا للصمت يشيع فيه والعيون تلتصص خلف فتحات النوافذ ؟ . هل منعوا أن يسعل أحد في الظلام ؟ . وما السر وراء اختلاف الروائح ؟ . وهل للحوم السلاحف المسلوقة رائحة ؟ .

جمال عبد الناصر

أجزم .. لم يكن لأبي يوماً مثل هذا الصندوق الأسود المرتفع لم يكن في بيتنا مكان يمكن أن يخفيه فيه .

.. وكان يمد يده ويخرج أشياء متعلقة بطفولتي ، لا أعرف ، يقيناً ، إن كانت مرت بسنوات عمري الأولى . أذكر البذلات العسكرية الثلاث : جيش ، وطيران ، وبحرية ، أذكرها ، وكانت كلها تحمل رتبة لم تتغير ، هي "البكباشي" . ولا يزال محفوراً في وعي حزني وحسرتي ، لأنها كانت - جميعاً - بلا غطاء رأس .. كانت نقود أبي تعجز - في كل مرة - عن شراء الزي كاملاً .. وكنت أقضي أيام العيد أحاول ألا أبدو هذا النقص الواضح ، ليكتمل زهوى بين عيال الشارع وتميزي عنهم . وكنت - عندما يسألونني - أرد عليهم ، كما علمني أبي ، ويشئ من عدم الاكتراث : الضباط العظام لا يضعون غطاء الرأس في كل الأوقات !

دعوني أسلم بأن أبي كان يملك مثل هذا الصندوق الأسود الكبير . والحقيقة أنني متأكد من أن هذا الصندوق نفسه كان يخص "الشاويش

الشوريجي" زوج "الست أم محمود" جارتنا في البيت الكبير في غيط العنب . نسلت يوماً إلى حجرة النوم الملحقة "بالمقعد الكبير" .. كان الصندوق مفتوحاً ، تفوح منه رائحة الملابس والمهمات المخزونة . وكان به بذلات الشاويش البيضاء والسوداء وأحذية غليظة وبطاطين داكنة ذات ملمس خشن . كان هدفي أن أخذ غطاء رأس أسود وأن المس المساحة النحاسية المستطيلة اللامعة في حزام الشاويش الشوريجي ، ولكن الوقت لم يسعني . كانت أم محمود مستلقية عارية فوق السرير .. لم تنهرني ، وقالت بلطف : عايز إيه يا ولد يا عكروت ؟!

كان صندوق الشاويش محدوداً ، ولكن صندوق أبي لا يكف عن إخراج أشياء عجيبة ، أكاد لا أصدق أنها كانت لي . ولكن أبي يؤكد ، ويظل يقول لي : هل تذكر هذه ؟

أنظر .. هذه أوراق دعاية انتخابية للاتحاد القومي .. كنت تجمعها .. هل نسيت ؟

أنظر أيضاً .. غطاءات زجاجات المياه الغازية .. سينالكو .. سباتس .. بيس .. كنت تلعب بها .. هل نسيت ؟!

ويظل يخرج أشياء من الصندوق حتى ازدحمت الحجرة بالملابس والأوراق واللعب الخشبية وكرات مصنوعة من الجوارب القديمة .. ويخرج لي من بين فوضى الأشياء نبلة ذات مقبض حديدي ، ويقهقه : هذه بعض أسلحتك .. كنت تحملها في ٥٦ ، وضربت بها عين علي ابن المخير فكادت

وأقول - متشككاً - ربما . وأقرب فألمس المقبض الحديدى ، وأجد الأجزاء المطاطية فسدت بتأثير الزمن ..ولكنى أجد قطعة الجلد السوداء التى كنا نضع فيها مقذوفاتنا من الحمصى لا تزال متسخة بالتراب . وأقول : لابد أننى كنت أصطاد بها العصافير . والحقيقة أننى كنت أشارك الأولاد جولاتهم تحت الأشجار عند ترعة المحمودية .. وكنت أجيد التصويب ، ولكنى كنت أطلق حصواتى بعيداً عن العصافير متعمداً . وكان على ابن المخبر يرجع وفى يده خبط مرصع بعشرات العصافير ، مؤكداً تفوقه على . كنت لا أكثرث . وكانت البنت التى لا أذكر اسمها تقول لى إنه لا يجبك . ولما اختلفنا على من يكون جمال عبد الناصر ومن يكون إيدن ، كانت هى البنت نفسها التى احتكنا إليها ، وقالت على يكون إيدن ، فهو أحمر الوجه ويسب الدين كثيراً .. وجعلتنى أنا جمال عبد الناصر لأننى ألبس 'بدلة ظياطى' فى العيد ، ولأننى طويل وفى وجهى مناخير تشبه مناخير الرئيس . وجهنا كل شئ للحرب . وأحضرت لمجموعتى أقواساً صنعتها من خشب الأقفاص المخزّم ، وسرقنا الأساتك من دواليب أمهاتنا ، وجهنا الاسهم المدببة . ووضع كل ولد خمس قطع متوسطة الحجم من الطوب فى جيوب جليابه . واكتفيت أنا بالنبله ، وحشوت جيوبى ب ذخيرة كافية من الزلط .. وقلت للبنت التى جعلتنى جمال عبد الناصر أنت وزيرة . واختبأنا خلف عربات اليد التى يتركها باعة الترمس فى آخر الشارع .. فلما ظهر على ابن المخبر وجنوده ، أصدرت أمرى بالهجوم ،

فكانت أول إصابة فى عين على . صرخ ، وذهب إلى أمه التى لفت ملاءنها حول وسطها ، وهرولت إلى أمى تزعق وتشتتم . ولما عاد أبوه من الشغل أصر على سحب أبى إلى نقطة البوليس لولا تدخل أولاد الحلال . وكنت مختبئاً خلف باب عمارة (تودارى) خوفاً من غضبه أبى . وهناك ، جاءتنى البنت ، وزيرتنى ، وأعطتنى لقمة القاضى . وكنت مندهشاً جداً لأن عظام ذراعها كانت واضحة تماماً ، وكانت تبدو هشة وأنا أبوسها ، وكانت جميلة فعلاً ..

فى المساء ، كان احتفالنا .. حملنا دمية من الأقمشة البالية ، البسناها قبعة أفرنجية أعطاها لنا (أبو طوية) تاجر الخردة والروبا بيكيا ، وطفنا بها فى الشوارع نصيح : "إيدن آهو ! .. إيدن آهو .. !". ثم أحرقناها وأخذنا ندور حولها ونكح من الدخان . وجلسنا أمام دكان أم ميلاد .. كان معى عشرة أولاد والبنت .. اشتريت لكل واحد نبوت الغفير ، وقلت لأم ميلاد: قيديهم على حساب عمى سيد أحمد ...

كان جدى يشتري الجريدة يومياً ، وكنت أتفرج على الصور وأقرأ بعض العناوين . ورأيت صورة جمال عبد الناصر يخطب فى الجامع الأزهر . ويعد أن انتهى الأولاد من أكل نبوت الغفير ، وقفت على الزلطة السوداء الكبيرة أمام بيت (أبو الشحات) ، فصرت أطول من العيال كثيراً ، وأخذ صوتى يعلو ، ويذأى تصعدان وتهبطان ، وأصبح : ستقاتل .. ستقاتل ! . والأولاد يصفقون ، حتى خرج أبو الشحات ووراءه كلبه

الضخم فجريننا إلى بيوتنا .

قال أبى : أنظر .. هذه صورتى ، وفيها الشيطان على ذراعى ، وعلى رأسى اليبيريه الأحمر .. بوليس حرى .. وهذه هى الحقيبة الكبيرة التى فزت بها فى المسابقة العسكرية وسلمها لى عبد الحكيم عامر بنفسه .. هل تذكر ؟ .. كنت تقرب إليك أحد أصحابك وسميته عبد الحكيم !

وكنت محرراً ، لأن الأشياء بدأت تتمدد وتحتل أرضية الغرفة وتغطى السرير والطاولة . وكنت واثقاً من أنها غرفة غربية على . لم يكن فى أى بيت لنا غرفة بهذا النظام عامرة بالأثاث .. لقد أحلناها إلى فوضى بهذه الأشياء التى يصر أبى على العودة إلى سحبها من صندوقه ..

قال : كان خطك دائماً جميلاً .. انظر .. كراسة الانشاء .. الصف الخامس .. مدرسة الجمعية السنية لتحفيظ القرآن الكريم .. اقرأ بنفسك هذا الموضوع : ماذا تريد أن تصبح فى المستقبل ؟ . أليس هذا هو خطك ؟ . قل لنا ماذا كتبت . مثلى الأعلى فى الوطنية الرئيس العظيم جمال عبد الناصر . وعندما أكبر ، أحب أن أكون رئيساً مثل جمال عبد الناصر !

وكانت هناك مجموعة من الصور ، فى الزى العسكري ، وفى الزى المدنى ، وعليها توقيعات كان الأولاد يصدقون - لأننى كنت موقناً - أنه خطها بقلمه خصيصاً من أجلى . صور كثيرة ، ليست لعبد الناصر فقط ، وإنما أيضاً لأم كلثوم وعبد الحلیم وكمال الشناوى والمواطن العربى الأول شكرى القوتلى .

لست أدري كيف تمكن أبى من صون كل هذه الأوراق والصور من

الصراصير والفران التي كانت تجرى في شقتنا المعتمة بالدور الأرضي .
كان أكثر الموجودات تضرراً كتاب بهت غلافه ولم تسلم حوافه من
الحشرات.. التصقت بعض صفحاته وأسودت بتأثير الرطوبة والفطر ..
خطوط تحت مطور عديدة .. ملاحظات في هوامش معظم الصفحات ..
والأستاذ "متى" ، ناظر النيل الإعدادية ينقلنا بنفسه في عربته المتهالكة
لنقابل المدارس الأخرى في مسابقة الميثاق الوطني .

أعطاني ألى مجموعة من الأوراق ، وقال : هذه نصوص أغاني .. لم
يكن لدينا جهاز تسجيل .. سجلتها بخطك وقت أن كان عبد الحليم يغنيها
في الحفلات . وكنت أسرق المذياع الصغير ، وأغلق الباب ، وأسهر لأسمع
عبد الحليم يغنى : قلناح نبى وأدى إحنا بيتنا السد العالى .. يا حبايب
بالسلامة .. يا جمال يا حبيب الملايين .. نفوت على الصحرا تخضر .
وكنت تنهرنى وتمنعنى ونقول : شوية عوالم يصفقون ويهللون والناس
حالتها بالبلا ! .

وكانت الكلمات تصنع عيداً .. ضوءاً خلافاً أراه يتشر أمام عينيَّ
ويجدل رؤى ووعوداً قابلة للتصديق . وتنام أنت مرهقاً ، وأسهر أنا
للفرحة في صوت حليم ، وأقول كيف استطاع صلاح جاهين أن ينظر في
داخلي وينقل .. وأنسى العشاء شبه الدائم من الفول المدمس أو البطاطس
المسلوقة .

نعم .. كنت قاسياً مثلما كان جدى معك قاسياً . ولم ترحم فرحتى يوم

أن أنقذت بناء السد العالى من التعطل . كانوا يسابقون الزمن ويضعون كل يوم لافتة جديدة مكتوب عليها عدد الأيام المتبقية . وحين علمت أن التورينيات سوف تمر فى ترعة المحمودية توقعت أن يصير اليوم عيداً فى غيظ العنب . كان يجب أن يلغى اليوم الدراسى ، ويخرج كل تلاميذ المدارس إلى ضفتى المحمودية ليكونوا فى استقبال معدات السد وهى تخرج من الميناء فى الصنادل التى تحملها إلى النيل ، جنوباً إلى أسوان . قلت لك إننى ذهبت لأنه حدث لى يتكرر . أغلقوا الكوبرى . ومرت الصنادل تجرها القاطرات وعينائى تمسحان كل ما يمر أمامى . هذه القطع المعدنية الضخمة جزء من أيامى القادمة . لى أشد إحساس فى الوجود بتملكها . وطال الوقت ، وانتهى النهار مع تعطل آخر قاطرة . أسرعى إلى موقعها . كان العمال فى حيرة ، واحتاجوا إلى مسبك يصنع لهم جزءاً معطوباً فى الماكينة . لم يجدوا غيرى دليلاً . وعدت بعد أن دارت القاطرة لتلحق بالركب المسافر جنوباً . كنت أدخل البيت معترزاً بمشاركتى فى مسئولية البناء ، ولكن إهانتك لى وإصرارك على ضربى بالعصا هدمتا بنائى الشامخ .

ولم تكن تصدقنى فى كل المرات التى جئت إليكم فيها وكلى بهجة ، فقد رأيته !

فى أول يوم لى بالعباسية الثانوية ، رأيته فى ميدان محطة مصر . فجأة ، وقعت عينائى على نافذة سيارة سوداء مغطاة بالستائر ، وكانت تمر قرية منى جداً ، وكانت بطيئة .. وكان جزء من وجهه يطل من فرجة بين ستائر

المقعد الخلفى .. جزء من الوجه ، ولحظات معدودة .. ولكن ذلك كان كافياً
جداً لأعرفه ، وأبتسم ، فيتسم ويأتيني من ملامحه الظاهرة ما يشبه الرجاء
ألا أعلن عن وجوده فى ذلك الميدان وسط الباعة الجائلين . وفى أجازة
الضيف ، عند البرنيسية ، على ترعة المحمودية فى محرم بك ، رأيت ، ولم
أكن وحدى ... ظللت مدة طويلة منتظراً (فريال) ، ولم أره إلا بعد أن
جاءت فلو كنت رأيت وأنا وحدى ، لصدقت أنا نفسى أننى ربما نهياً لى ..
خصوصاً وأن الجو هناك هادئ جداً ولا أحد يمر ، والأشجار عالية وكثيفة
ومليشة بالعصافير ولم أكن أنا الذى اخترت المكان بل فريال . كانت تأتى
إلى بيتنا لتحصل لأمها الأقساط الشهرية من ستنى أم سعد . وكنت أذهب
إلى سينما النيل فى كرموز وأشاهد أفلام ليلى مراد ، وكنت أقرأ روايات
محمد عبد الحليم عبد الله ويوسف السباعى ، فقلت لفريال أنا أحبك .
وكنت جاداً . وظللت أقول لها ذلك ، ومعه كلام آخر كنت أجيد ترتيبه ،
وكنت أنظر فى عينيها وأتكلم ، وكانت هى تضحك وتقول إنها لا تفهم
هذا الكلام ، وفكت زرارين فى بلوزتها ، وأخذت كفى فأسكتتها بين
نهديها ، وأراحت ظهرها إلى جزع الشجرة . بقيت كفى هناك ، وأنا فى
حيرة ، وعيناي تتحركان فى ذعر بين فتحة البلوزة والطريق . وكانت
تشجعنى وتقول لا تخف .. لا تخف . وكنت خائفاً ، لا أعرف ماذا أفعل
بكفى . وكنت عرقاناً وأفكر فى مغادرة المكان ، خصوصاً بعد أن سمعت
صوت محرك سيارة يقترب . كانت سيارة سوداء أيضاً ، ولكن بلا ستائر .
وكان هو فى المقعد الخلفى وحده . نظر فى اتجاهنا . لم تكن فريال ظاهرة .

كانت المسافة تزيد عن عشرين متراً ، ولكن حلة بصرى فى ذلك الوقت
مكتتى من تمييز الابتسامة وتلوحة اليد . ولم اخبر أحداً ، لأنه كان على
أن أقدم تفسيراً لوجودى فى ذلك المكان المهجور .

وهل كان غريباً ، بعد واقعة البرنيسية بشهر ، أن أراه فى احتفالات
عيد الثورة ؟

كنت أقف على الرصيف بين حشد من الناس فى طريق الحرية . وكان
فى عربة مكشوفة واقفاً يرد التحية . الطريق واسعة ، والفضاء خلفه وفوقه
متسع ، وكان بنيانه العملاق يملأ ذلك الفراغ ، بينما السبارة تمشى فى
الموكب متتلة . وكنت أصفق وأهف له ككل من حولى . لم يكن فى شئ
يميزنى عن الصف أو الصفيين من البشر على الرصيف .. ولكنى متأكد من
أن رأسه ، وهى تدور يمينا ويساراً ، طال التفاتها فى اتجاهى ، كأنما حدثته
الذاكرة بأمرى للحظات .. كأنما كان ليتعجب من توالى لقاءاتنا .

لقت نظرى بين المتاع الذى لفظه الصندوق كيس أسود كبير . نفس
الكيس بنفس المحتويات كأنها لم تليس . إنها البدلة التى نلتها مع عضوية
منظمة الشباب . كانت البدلة الوحيدة التى ارتديتها - خلاف ملابس
الطفولة - قبل أن أضطر إلى تفصيل واحدة فى مناسبة خطبتى .

كانت الفرحة عامة فى الأسرة ، بل إن خالى وخالى وأحد أعمامى
جاءوا إلينا خصيصاً لبروها . وحين ذهبت بها - لأول مرة - إلى المدرسة
العباسية ، وكنت فى الصف الثالث ، ظللت طول اليوم الدراسى محل

اهتمام كل من في المدرسة ، حتى ناظر المدرسة ، استدعاني إلى مكتبه ليراني في بدلة المنظمة نسيت أن أقول أنها لم تكن بدلة فقط ، بل كان معها قميصها الأبيض وربطة العنق الرمادية وحذاء أسود برباط وجوربان . واحد فقط عاب عليها . كان منافسي في انتخابات المحاد طلاب المدرسة . نظر إلىّ في لا مبالاة وقال إنها تشبه أردية السعاة في البنوك والقنادق ، وهي تحمل شعار المنظمة على صدرها . كنت أعرف أنها الغيرة. وتعجبت ... كيف ، وهو المتحمس للفكر الاشتراكي مثلي ، يعيب على البدلة أنها تحمل شعار منظمة الشباب ؟

كنت آكل ، في معسكرات الشباب ، طعاماً يشبه ما يقدم لنا في البيت في عيد الأضحى فقط .. أيام صيفية خالية من الضيق والقلق .. إقامة مجانية كاملة . وكانت العودة إلى البيت مؤسفة . وكنا نجلس في صفوف أمام الرئيس ، وقد تدرينا على تصفيقة موحدة تنطلق بها أكفنا المتحمسة عند وقفات معينة في أحاديثه . الوجوه والأجسام والأردية متشابهة . آلاف النقاط بنفس الدرجة من التوهج أو الانطفاء أمام عيني الرئيس . لم يكن ثمة أمل في أن تقع عيناه عليّ وحدي ... ولا أعتقد أنني فكرت في ذلك . وفي حلوان كانت سنوات قليلة قد مضت .. سنوات من الحزن والتخبط .. لم تكن هناك بذلات .. لم تكن هناك تصفيقات ذات إيقاع .. لم يكن يتحدث إلينا واقفاً في بدلته ذات المنديل في جيب الصدر . كان جالساً ، وكان الجو حاراً . وكان يستمع إلينا ويناقشنا . يدير الجلسة بنفسه وكنت أرفع يدي ، ولكنه - حتى انقضى الاجتماع - لم يدعني للكلام . كان لذيّ

- لا بد - ما أقوله . كنت أكتب الشعر وأختلف كثيراً مع أفراد التنظيم . كنت أدرك أنه يسبقهم جميعاً ، وأنهم يلهثون خلفه ، ومعظمهم كيانات ظاهرة خاوية تحيد الابتسام والتكتم ، ولا تحسن إنشاء جملتين خاليتين من الأخطاء ، ولا رصيد لديها إلا فقرات محفوظة من الميثاق وبيان ٣٠ مارس وآخر خطبة للرئيس . وكنت أواجههم بذلك ، فيخافونى ويتظنون أقرب فرصة للتخلص من تكبرى وادعاء اتى الثقافية . أشياء كثيرة أعدتها جيداً لأعرضها عليه ، وعدت بها إلى سربرى ، دون أن أمر بالمطعم . فى فمى مرارة حقيقية ، وفى صدرى خليط من العتاب عليه والحزن من أجله . كنت مرهقاً وأريد أن أبكى ، وأن أتكلم وأنقل إليه خوفى وحزنى . وكان جسدى نائماً ، ولكنى بقيت متمسكاً بحقى فى الجزع من أجله ومن أجلنا . فلما رأيته قلت له : يا ريس .. أنا خائف عليك .. أراك كأنما تريد أن تموت . ضحك وقال : لا تخف يا رجب .. وعلى أى حال ، من سيبقى فى الدنيا ؟ ! . قلت : يا ريس البناء لم يكتمل .. يخدعونك ، والجدران لن تستمر بعدك ! .. الفطر كامن .. وأخشى أن تقتلع غرساتك عند أول ربح قوية . قال : لا تبالغ .. والبركة فىك ! .. الآن .. سأنام ! . وتمدد ، فصرخت لا .. لا تفعل .. قم .. سيغلقون عليك التابوت ! . ولكنه لم يكن ليسمعى .. كان خلف الغطاء الثقيل .

قال أبى : خذ .. هذه آخر ما حفظته من أشيائك ! . وكانت سترة عسكرية مثقوبة .. عرفتها . تذكرت حماقتى حين فكرت فى نشرها على حائط من سلك شائك لتجف . كنت فى فصيلة لخدمة الجبهة فى

الاسماعيلية .. طرحتها على السلك ، واستدرت لأنزل إلى الخندق ،
فمرت رصاصة القناص أمام وجهي لتستقر في صدر الشرة . لم امت ،
ولكنه يقول : إنها كانت نهايتك ! . وهو يعرف تماماً أنني تخرجت
وصرت جندياً ، وكابد هو بنفسه ، مع أمي ، القلق علىّ ، في حصار
الجيش الثالث . ولكنه يصر ، ويظل داخل الصندوق الذي تغير شكله ،
واتسعت فوهته ، ويقول : انظر .. لقد أنزلتك بنفسى .. وكانت أشياؤك
معك .. فما الذى تريد إثباته ؟ . وتقدمت خطوة لأنظر في قاع الصندوق .
كان القاع بعيداً ، مغطى بالتراب الناعم .. وفي اللحظات التى استغرقتها
إطلالتي إلى الفراغ الشحيح الضوء ، كنت متوجساً ، وأكاد أحس باليد
المتسللة لتدفعنى إلى القاع .

خذ

فاجانى طابق جديد ، يعلو الطابق الأرضى .

وأدهشنى أن الفيلا ، التى اختزنتها الذاكرة منزوية فى ذلك الموقع البعيد منطقتة فى لون الطوب الأحمر ، والسياج الحديدى الصدى ، محاطة بالرمال ، بلا تفاصيل معمارية - ارتفعت واتخذت ملامح القصور ، وعمرت بالتشكيلات والفراغات والألوان ، حتى أتنى سألت ، لاناكد من مقصدى قبل أن أقترب من الباب .

نظر إلى حارس الفيلا المجاورة بارتباب ، وأنا أخبره بأتنى ابن الفقيد . وعاد الرجل - بعد أن فتحت باب حظيرة السيارات - يستطلع ، واقترب أكثر ، يتفحصنى ، وأنا حائر بين فضوله التشكك والمفاجأة التى كانت تنتظرنى فى ذلك المكان المظلم الرطب ... ثلاث سيارات ، لم أستطع - لشلة قدمها - تحديد هوياتها . وكان الرجل مستمراً فى التحديق إلى وجهى ، وكان يتمتم : سبحان الله .. سبحان الله !

فقلت إنه يحاول استثمار الموقف ، كالعادة ، من أجل النقود ، أو ربما

كان يحاول أن يعبر عن مواساة حقيقية . أعطيته بعض النقود . أخذها
وأنصرف يواصل تتماته .

شعرت بالحزن ، لأول مرة منذ ملابس الوفاة ، حين دخلت من الباب
الخارجي فداهمنى تعدد التفاصيل فى المساحة الكبيرة المحيطة بالمبنى ..
كنت أحسبها شريطاً ضيقاً يلى السور ، ويكفى - بالكاد - لغرس صف
من الأشجار ، ولكننى وجدت حديقة متنوعة المزروعات تحيط بالفيلا ،
وحمام سباحة كلوى الشكل ، تعطن ماؤه ، وحوله مظلة ومقاعد خيزرانية
بيضاء .

صعدت الدرجات الرخامية القليلة ، وفتحت الباب الخشبي الثقيل ،
فاستقبلتى قاعة غنية بالأثاث والمفروشات والستائر والثريات والجداريات .
وجدت حجرة النوم القديمة كما هى ، لم يغير موقعها ، وإن تبدلت
الموبيليا والمفروشات ، وطغت عليها ألوان صاخبة . وعادونى شعور
بالأسف ، مختلطاً بالحزن ، حين اكتشفت - للحظات - أننى لم أكن
إيجابياً أمام عناده ، وتركته يختار عزله ، ويسقط ميتاً وهو يتجول فى
سوق للمهمات ، ويبقى جثمانه مجهولاً فى ثلاجة المستشفى ، حتى
عدت .

وكانت خطتى أن ألقى نظرة على الطابق العلوى ، قبل أن أغادر الفيلا .
كانت القاعة ، على وضعها القديم ، تبدو كصالة كبيرة فى شقة ، لا صلة
لها بما فوقها . هل ثمة سلم بالخارج ؟ خرجت لأتأكد من أننى خلال

تفقدى للحديقة لم أجد سلماً للطابق العلوى . كانت النوافذ العليا مغلقة، كأنها لم تفتح من قبل .

عدت إلى القاعة متمهلاً ، أحاول - من خلال خبرتى الطويلة به - أن أصل إلى مرمى تفكيره فى إضافة طابق - لم تكن له به حاجة أو ضرورة - ويسد الطريق إليه ، فيتركه لى بلا سلم !. كأنه يرسم لغزاً لم يهتم بأن يحكيه لى فى زمن مضى . ولما أضفت الأمر إلى سلسلة ما صدر منه فى السنوات الأخيرة من أمور مستهجنة ، توارت الحيرة . وجلست أشعل سيجارتى ، تشاغلتى فكرة طارئة ، أن أحفظ بالقبلا ، وأقيم لها سلماً ، وأستبعد فكرة البيع . كان لى - فى الأيام القليلة الماضية - هاجس غامض يتحدى إرادتى فى التخلص منها ، بالرغم من أننى كنت أردد أمام الجميع : ما حاجتى إلى مبنى كتيب صممه هو وبنائه بنفسه !؟

... لتتغاضى عن عيب السلم الداخلى ، وعن أشياء أخرى لا تحتاج إلا لمراجعات بسيطة : صراحة الألوان وزعيقها .. تداخل المكونات وازدحامها...

واجتذبتى حجرة النوم لأتوقف أمام محتوياتها مرة ثانية .. خليط من قطع الأثاث ، متنافرة ، مغيبة فى غيمة من غموض . استقبلتني مقعد خيزرانى هزاز ، يميل ظهره المشفول بالخصوص إلى الأمام ، كأنما كف عن الحركة حالاً . وفى الصدارة ، سرير معدنى أسود ، تتميز شخصيته بأعمدته الاسطوانية المحلاة بوصلات من النحاس الأصفر له لمعة طازجة ، وشباك

يواجه الداخل ، يرتفع عن مستوى الفراش كثيراً ، وتغطية مشغولات من القصب تشبه الأرابيسك ، وتسدل عليه شرائط من أقمشة رقيقة ، فيما يشبه الإهمال . وجعلنى ذلك كله أنقبض ، كأننى أواجه ضريحاً .

دارت عيناى مع الحوائط الأربعة ، وتوقفنا أمام المنطى تماماً بستارة ثقيلة داكنة الزرقة ، فيها تموج مضطرب ، كأنها أعدت للاختباء .. فهل يكون وراءها متفد إلى السلم الغائب ؟

أزحتها عند المنتصف ، فاستجابت فى سهولة ، وكشفت إطاراً كبيراً لصورة ضوئية لفخزين كجيلين يملآن وجه الصورة ويخفيان بقية تفاصيل الأئنى خلفهما .

كنت أهر رأسى ، محاولاً كيح انفجار الضحك ، ولعلنى كنت أردد بعض الكلمات مأخوذاً بما كانت تخبئه الستارة . ولكنى لم أتحرك من مكائى ، ولم تكشف عيناى بالنظرة التى اكتشفت ، بل إننى جلست أمام الصورة ، وخليط من المشاعر - بينها البهجة - يجعلنى أبتسم وأستشعر وهجاً دفيناً لم أفلح فى التنصل منه أو فى محاذرته ، وتنبؤات من المتعة تحتشد تغالب توجهات الواد .

وكان فادحاً أن يتهى كل ذلك ، متهكاً بالصوت القبيح الصادر عند فتحة الباب :

أهلاً .. يا باشا !

لم يكن صوتها ، فقط ، هو القبيح . بها ما يشبه التحفز . كانت تقترب

لترانى أكثر . لم أسأل من أنت وكيف دخلت ، لأن دهشتى كانت أكبر ..
كانت فى رداء الحمام ، وشعرها مبلل . وكانت هى التى قالت : ما أشد
شبهك به ! فأدركت أنها تعرفه . قالت : تأخرت كثيراً .. كنت فى
انتظارك !

وكان يجب أن أعرف : هل أعرفك ؟

خطت ، مطمئنة ، إلى خلف ساتر فى الحجرة المتسعة ، وضحكت فى
ثقة ، تظهر أنوثة خافية تمطت فى رنين وطول ذيل الضحكة . قالت وهى
تبدل ملابسها : عرفتى قبل أن ترانى .. ! وامتد إصبعها يشير إلى الصورة ،
وقالت : كنت تتأمل فى منذ لحظات !
وعادت تضحك .

قلت : لا يمكن أن تكونى زوجته !

أسرعت لتحدد ، فى بساطة : بل محظيته !

وكانت تحتاج إلى تحديد أكثر : أيهن ؟

ردت ، بنفس الهدوء والبساطة ، وإن شابهما درجة من تحد : عرفتهن
كلهن من كنى قبلى ، ومن مررن بى .. ولكننى أنا التى بقيت !
وخرجت من الخلف الساتر فى ملابسها ، لتشعل سيجارة ، وتتحرك
خطوات قليلة لتقف فى مواجهتى ، وكنت لا أزال محتفظاً بجلستى ،
وقالت وهى تمثل انحناءة : لاكون فى شرف استقبالكم !

قدمت لى سيجارة . رفضتها ، وأشعلت واحدة من علبتي ، خرجت بها إلى القاعة . جلست ، وكانت فى إثرى ، تحتل مقعداً ، وترفع ساقاً فوق ساق . قالت : أنا أعرف عنك كل شئ ، وأنت لم تسألنى - حتى - عن اسمى !

استوقفتنى ، للمحظات ، فكرة أنها ، فى مجملها ، ليست بشرية .. كيف ، ومن أين تواجدت فجأة ، وتخللت - هكذا - كل هذه المساحة ، هوناً ، وتجلس أمامى مسترخية تسحب أنفاس الدخان قلت : اسمك ستحتفظين به ، لأننى سأراك ، بعد دقائق ، لآخر مرة ، وأنت تحملين حقائبك مغادرة !

لم يبد على وجهها أنها انفعلت . رفعت يدها التى تتعلق السيجارة بين إصبعين منها ، وقامت متشامخة ، متهادية ، لتواجهنى واقفة ، ثم تدور حول مقعدى ، وتعبث أصابعها بشعرى . تساءلت فى لبونة : أهكذا يخاطب الأولاد أمهاتهم ؟

تلقت لظمتى الحافظة ثابتة ، كأنها توقعتها . ولم يتأثر صوتها ، بنفس الليونة واصلت : أو ، من فى مكانة أمهاتهم !؟

لظمتها ثانية . صاحت : فى خدمة فراش عجوز عرييد .. على الأقل ! لظمتها ثالثة ، ثم تتالت لظماتى ، حتى انهارت . سقطت تحت قدمى ، وقامت تتشبث بساقى ، وفى جسمها انتفاضات . رفضتها أتخلص من تعلقها . أنصالي أظافرها تصل إلى جلدى . تحركت أبعد ، لأخرج من

دائرة الهوس ظلت مستحوزة على ساقى ، وأوشك قماش بنطالى أن يتمزق . كانت تزوم ، ورفعت إلى وجهها فيه نشوة مرعبة . أفلتت ساقاً لتشير بيدها إلى حائط قريب . غاب عني ، وسط ازدحام المكان بالأشياء ، أن ألقت إلى مجموعة من السياط معلقة على الحائط وكانت يدها لاتزال ممدودة إلى الأمام ، وسبابتها تشير إلى حلقة السياط بتوسطها رأس غزال ، ووجهها القانى يعرق ، وعيناها شبه مغمضتين ، ترتفعان إلى فى رجاء .

لم أكن غير مدرك .. كنت غير مصدق ، واكتنفتى الدهول تماماً وأنا أراها تدخل فى موجة صراخ ، وتفلتنى ، وتثق ثوبها بيديها ، فيتعري جسمها المكتوى بخطوط طويلة داكنة .

تركت نفسى أسقط فى أقرب مقعد ، أخفق فى تثبيت كهارب الانفعال فى رأس ، وبى خوف شديد لخلو جيبي من شريط حبات الدواء . كان الواجب أن أخفف من توترى فألجأ إلى استرخاء طويل ، ولكن ذلك كان متحيزاً أمام الحقيقة المائلة أمامى فى دائرة السياط على الجدار ، والجسد الممزق فوق السجادة .

صحت فيها أن تنهض وتمضى من أمامى . تحركت ، أخيراً ، وقامت متباطئة ، لترنمى - مهبضة - فى مقعد . تماسكت ، بعد قليل ، واعتذرت أولاً ، ثم قالت : رأيت ؟!

قلت : لا معنى لأى كلام الآن .. قومى وارحلى

قالت : لن أرحل . قلت ، ضجراً : أرجوك . هذا يكفى .. لا أريد أن

أراك هنا .. خذى ما تشائين وغاديرنى ..

اعتدلت ، غير عابثة بعريها : لم أنتظر لتعطينى أنت .. لقد أخذت ا .
ولما وجدتنى أنظر فى عينيها مشككاً ، واصلت : نعم .. أنت الآن ضيفى ،
فى مسكنى !

قلت : رأيت شذوذك ، وجنونك - الآن - يتأكد لى !

ردت : هذا ما فعله بى العجوز .. ألا استحق ما يقابله ؟

حاولت أن أقول هادئاً : هذا بيتى .. أنا وريثه الوحيد ..

فصاحت هى : وأنا أقول لك : أنا مالكة هذا المكن .. واحتفظ لك بما

لا يخصنى : الدور العلوى !

كانت واثقة ، وعادت إلى التدخين ، وأكدت : لدى الأوراق موثقة ..

والمحامى موجود ، يمكنك مراجعته ..

غرقت فى صمت بثر المفاجأة ، أحمل رأسى المتناقل بين كفى ، أحلق

فى امرأة شبه عارية ، تجلس أمامى راسخة ، وتصنع مسحايات من الدخان

وسحايات أخرى ، غير مرئية ، من روائح نفاذة لهورمونات الأنثى .

تراجعت ، بصعوبة ، عن التدهلز فيها ، وشاركت هى ، بصوتها ، فى

إبعادى عن بقعة تتحرك رمالها .. قالت :

- "حين رأيتك تنظر فى صورتى ، أردتك ا

قلت ، مغلقاً بوابة الريح الصافرة : تاكدى أنتى سأراجع كل شئ ، ولن

أدعك تأخذين كل شيء .. لمجرد ..

قالت : تأكد أن القسمة عادلة .. مستضيف أرصده إلى أرصدتك ..
ونصيبك هنا في انتظارك ..

وأشارت إلى الطابق العلوى ...

قلت ، أنهى مواجهتها : أين السلم الصاعد إليه ...

انقلبت مقهقهة ، وأخذت نسعل ، ولما هدأت ، أخرجت مفتاحاً من
جيب بفسطانها الممزق ، ألقت به إلى ، ثم قامت وقالت : اتبعنى . فقممت
وتبعتها . عادت إلى القهقهة ونحن نغادر القاعة . دخلت إلى حجرة النوم
، وأزاحت ستاراً ثقيلاً ، فظهر باب مغلق . قالت : خذ طريقك إلى نصيبك
من ميراث أبيك !

غادرت الحجرة ، وتركتنى أفتح الباب وأدخل إلى ممر مظلم ثقيل
الهواء . تحسست طريقى حتى عثرت على بداية السلم . سمعت صياحها :
سأنير لك المكان . ورأيت السلم ، وكنت عند منتصفه . أكملت إلى أعلى .
وصلت إلى بداية ممر علوى ، سرت فيه ، دارى ، وانتهى عند السلم . كان
الممر نظيفاً ، مفروشاً بالموكيت الأحمر ، جيد الإضاءة ، تفتح فيه حجرات
متراصة ، كطابق فى فندق .

تشوشت حين حاولت اصطياد فكرة واضحة تربط بين ما أرى ومتالية
الأحداث التى سبقت صعودى إلى هذا المكان الصامت . أبواب مغلقة ،

““

وعلامة استفهام ضخمة ، وحيرة وتخط ، واقتراب من مجال الفوضى .
لماذا أعطاني هذه الحجرات المغلقة ، بهذا السلم الخفى ؟

أمسكت بمقبض أقرب حجرة إلى . فتحت الباب ، وسمعت - فى
نفس الوقت - قهقهاتها تتصاعد عندى .. كأنها ترصد تحركاتى . ونسيت
أمر القهقهة وأنا أحاول أن أعبر ، مع عينى ، هذا الترتيب السخيف : أكوام
من المخلفات !؟

أسرعت إلى الحجرة التالية : أكوام من أنواع أخرى من المهملات !
كانت بقايا الأشياء تملأ كل الحجرات .. مصنفة ، متراسة ، معدة للعرض ،
لا تراكب ولا عنكب ، وإضاءات قوية تعطى لهذه التجمعات الوحشية
من سقط المتاع والمعدومات وجوداً راسخاً .. كان حقيقة ، إذن ، ما تردد
عن شغفه الشديد بارتياح سوق المخلفات فى كل يوم جمعة !

تسللت الهزيمة إلى قلبى . خلفت - مطعوناً - الأبواب مفتحة ،
وأخذت قدمائى تتحسان درجات السلم ، حتى انسحب الضوء عند آخر
درجة .

توقفت فى الممر المظلم راغباً فى البكاء ، فاختلج صدرى وبكيت .
ملأت الدموع عينى ، وأنا أدخل حجرة النوم ، وراوغتني ستائر ثقيلة وأنا
أبحث عن باب الخروج . سمعتها تسألنى عن رأى . ولم أكن أريد أن
أتكلم أو أراها . سألت ، أيضاً : ألا تستريح قليلاً ؟ . وأخذت تدعونى
إليها . وكنت - ضائقاً - قد بدأت أزيح طبقات من الستائر بحثاً عن باب

ياخذنى بعيداً عنها . كانت الستائر تشاقل ، وكانت ألوانها الصريحة تتوالى
فى قبح ، والباب لا يظهر لى ، حتى أننى صرت فى سجن من الستائر
المخادعة ، لا تتمزق ولا تنتهى ، بل أخذت - أخيراً - تزحف من الجهات
الأربع ، تطاردنى - فى تودة - إلى مركز مستطيل يشغله سرير معدنى
مرتفع يشبه الضريح .



اركبوا دراجاتكم !!

ظهيرة شتوية رائقة .

أرصفت المحطة شبه خالية ، وعربات الترام تزحف داخلة أو تتأهب للمغادرة فى نكاسل . تيارات من الهواء المحتمل البرودة تتصارع فى الميدان ، ولكن فى تقطع ، والشمس طيبة ، تفرى المارة المعدودين بالتلكؤ وهم يعبرون الميدان . قضيت الصلاة ، فبدأ توافد المصلين من جامع القائد إبراهيم . فتحت الأبواب النازلة إلى الجمعية الاستهلاكية تحت أرض الميدان ، وارتفعت أصوات بعض باعة الصحف والباعة الجائلين الذين يتاجرون فى المستلزمات النسائية الصغيرة . جرت سيارات أكثر حول الميدان . كفت الشمس عن تدفئة المكان .. فماذا يدعونى إلى الاستمرار فى السكون إلى ذلك التألف المشرق الذى تفكك وتساقت ؟ .

دست صحيفتى فى جيب معطفى الداخلى ، وهممت بأن أترك
صديقى بائع الصحف العجوز إلى مقهى المظلة على الميناء الشرقية ،
لأخذ فنجان قهوة الجمعة ، وأثرثر مع من يتصادف وجوده فى المقهى من
المعارف والأصدقاء خطوات قليلة ، فكرت خلالها فى نوع الفاكهة الذى
طلبت زوجتى منى شراءه ، وداهمنى خوف جعلنى أتخشب فى مكانى ..
مررت بجانبى ، حتى أن مقودها لامس معطفى ..

دراجة فى الميدان ا

كان يمكن أن تصطدم بى فتطرحنى أرضاً .. كان يمكن أن تكسر بعض
عظامى .. إنها - على الأقل - قدر وعنتى ، واقتحمت على حدود
اطمئنانى إلى الأمور المحكومة بالروتين والاعتياد .

لم أكن وحيداً فى ذلك . اشترك كثيرون فى موجة الاضطراب التى
دفعت بها الدراجة إلى الميدان . وكنت من قلة تمكن منهم رد الفعل ،
فالتفتوا يستكرون ويحاولون أن يوقعوا براكب الدراجة ما يملكون من
عقاب .

صحت : يا مخبول ا .. يا بائس ا

ولكنه لم يكن ليسمعنى . كان يكاد يخفى وسط المارين والواقفين
بميدان محطة الرمل بعد صلاة الجمعة . ولكن حالة السخط لم تكن عامة .
كان بعض الرجال والأولاد يضحكون ويشيرون إلى راكب الدراجة ،
ويصيحون بما يؤكد معرفتهم به ، واستطعت أن أميز فى صياحهم مطالبتهم

له بأن يفنى . وكان هو مسادراً فى إثارة الفزع ، حتى تحول الميدان إلى شبه دائرة ، تراجع البشر إلى حدود محيطها ، وأخلوا القلب لراكب الدراجة .

رايت وجهه وهو يمر بالموقع الذى كنت أقف فيه . لم تكن فيه ملامح المختلين ، وكانت ابتسامته طبيعية .. كان وجهه كله مملوءاً بالفرح ، وكان يلوح ، كزعيم بيده ، وأحياناً يترك المقود تماماً ليُلوح بيديه معاً ، وخصوصاً عندما يمر بالمواقع التى يتجمع فيها مريدوه الذين كانوا لا يكفون عن مناداته باسمه ليفنى .

لم أعتن بالانصات إلى الأصوات المتداخلة لأتبين الاسم . ولم يكن يهمنى أن أعرف اسم هذا الذى يطغى بمركبته ويحيل الميدان إلى ساحة سيرك .

لا مناص من الاعتراف بأن سلوكى كان مختلفاً عن المعتاد تجاه مثل هذه الوقائع .. فقد ظللت واقفاً أتابع المشهد المستمر ، متعللاً - فى البداية - بمراقبة سلوك البشر إزاء مصدر للفوضى ، ونسيت المقهى والقهوة وفاكهة زوجتى .

كان قد بدأ يبالغ فى ألعابه ، فيصعد بقدميه على مقعد الدراجة ، وجسمه مقوس فوقها . وكان من السهل علىّ تماماً أن أركز اهتمامى بلامح وجهه المريحة ، والعينين المطمئنتين المطلتين على العالم باتساع غريب .

تزايد عدد المتابعين ، وكان فيهم ممن يراعون أناقتهم الشتوية ،

ويحرصون - مثلى - على انتقاء ربطة العنق ، حتى فى جولة نهار الجمعة . وكان عدد الوجوه المبسمة يرتفع . واكتشفت أننى أبذل جهداً لأمنع ابتسامتى ، متحصناً بأفكارى الثابتة عن اللاشعور الجمعى . وبمجرد أن اكتشفت ذلك ابتسمت ، وتربت من ذاكرتى دراجة تنهادى فى شارع شبه مظلم قرب فندق (نيو كراكت) ، وعليها اثنان : فتى وفتاة . الفتى يقود بمهارة ، والفتاة إلى الخلف منه ، تحيط خصره بلزاعبها ، وتحط بجانب رأسها على صفحة ظهره . دأبا على انتزاع نفسيهما من المجموعة ، وأمضيا ليلالى الرحلة الشتوية بجويان شوارع أسوان ، المجهولة لهما ، فوق دراجة .

ثم وجدتنى أتسلل ، فى منامتى ، نازلاً درجات السلم القليلة .. حجرة بشر السلم ، والمفتاح يعالج الباب فى مشقة ، ثم المصباح اليدوى يمسح أركان الحجرة المظلمة . ها هى .. كما هى .. تستند إلى الجدار البعيد وقد فرغ إطارها المطاطيان من الهواء ، والسلاسل تلتف حول أسلاك الإطار الخلفى تكبله إلى عمود حديدى بارز من الجدار . الولد يقترب من الشباب ويلح فى طلبه لها ، وأنا أنثبث بحمايتى له منها .. أنا لا أرى إلا شوارع تفص بمحركات مجنونة . أستغل سلطتى لأحرمه منها ، ولكن السنوات التى يتقدمها تجعله يزداد إصراراً ، وأضبطه مرات عديدة فى حجرة بئر السلم يتفحصها ويحاول تخليصها . أفهمته أكثر من مرة أنها لم تعد تصلح للركوب ، وقد تسرب الصدا إلى قلبها . قال : أعطنى فرصة وسترى ! . حماس غريب وأفكار واضحة سليمة كقيلة بأن تعيدها إلى هيئتها الأولى . قال أيضاً : ستكون نموذجاً فريداً بين درجات المدينة ..

سأعطيها نفس اللون الذى كان لها أيام كنت تركبها : الأبيض ! . وكان يعرف أنه يداعب مواطن الضعف فى قضيتى . أنا الذى حدثته عنها وهو صغير . أنا الذى قلت له إن أبى أهداها لى ، تنفيذاً لوصية أبيه الذى فقد وظيفة موزع بركيات لأنه لم يكن يملك مؤهلاتها : قيادة الدراجة ! يقول الولد ، يتهمنى : لكن جدى الأكبر أوصى لى بها ! . أعود متمسكاً برفضى ، عابساً ، ويقىنى أنه سيفلح ، ذات يوم ، فى إخراجها من الحجر المظلمة لتجرى بين صفوف السيارات فى طرقات المدينة المشبعة بالأتربة والعوادم .

لا تخفى على مهارته . تبدو - تحته - امتداداً له ، فتسرب إليها صفة الحياة . كان يتوقف فوقها ، ويجبرها على الاستسلام فى أتران يدوم لحظات قبل أن يعاود الحركة بها فى الميدان .

أصبحت أخشى أن تكون جولات طفولته الأولى لاتزال عالقة بذاكرته ، فيستردّها ليثبت أنه جزء من تاريخ الدراجة الأسيرة .

لماذا أصبحت أبتعد عن تلك الأيام الجميلة ؟

لم تمر بى متعة أصفى من جولاتى بها فى الطريق الموازية لسرعة المحمودية . وقبل أن أتركها - دون قيد - فى الدكان أسفل بيتنا القديم فى غيط العنب ، كنت أسمع كل جزء فيها لأزبل دقائق الغبار ، وألح الجرس المعدنى ، وأضع الشحم على التروس والجنزير . وكانت طقوس عنايتى بها امتداداً للمتعة التى تهبها لى .

هل صحيح أنني فقدت استعدادى للاستمتاع ؟

من الذى واجهنى بهذه الدرجة من الحدة ؟

لماذا - إذن - لا تريله أن يتذكر مشاركتك بعض سياحاتك فوقها ؟ ..
حدائق الشلالات - الكورنيش - قصر رأس التين - حديقة الحيوان -
مباريات كرة القدم فى ملعب البلدية .

خلعت - فيما بعد ، متعمداً - الكرسي الصغير الذى كان يجلس فوقه
على الماسورة الأمامية الممتدة من كرسيك إلى عمود المقود . كنت تقود
وتعلمه الا يخاف . جاء دورك الآن لتخاف ، ولترى ، مع نظرات الأسف
والأسى فى عينيه ، ما تفسره أحياناً بالضيق من وجلك ، وأحياناً بالإشفاق
عليك .

بدأ الغناء ... صوت عريض بأدى الفرح .

هم يعرفون جمال صوته ، فكانوا يطلبونه منذ دخل إلى الميدان
بدراجته . أصابتنى الحيرة ، ثم الضيق ، وأنا أحاول تتبع معنى لما يغنى . لغة
أقرب إلى الهندية . يغنى بلغة سرية تحمل رموزها حمائم صوته . لا يبدو
أن جمهوره يطرب لغنائه ، ولكنهم يلبون دعوة الحمائم إلى شلالات
مجهولة من النشوة .

كان صديقى بائع الصحف العجوز يغنى . انتقلت إليه عدوى السعادة .
وكان يردد ، من خلال ابتسامة طيبة : إنه المغنى .. إنه المغنى !!

كان هو أقرب آدمى يمكن أن أسأله عن معنى الكلمات . ولكنى أعلم

تماماً أنها بلا معنى . فلماذا أسأله ؟ . ثم إننى صرت أكثر استجابة للصوت، ويمكننى أن أتنازل الآن عن التثبيت بأن تكون الكلمات واضحة ذات دلالة .

وكان راكب الدراجة يخصص العجوز بإيماءة كلما مرّ بركته فى الميدان ، فيبتسم العجوز كالأطفال ، فهل تراه - هكذا - يهتم بالتفكير فى سؤال كسؤالى ؟ . ولكنى فوجئت بأن بائع الصحف العجوز كان ، مثلى ، عاجزاً عن تبين ما يقول راكب الدراجة ، إذ لكزنى فى كتفى وهو يلفت نظرى : إنه اليوم فى غير حالته الطبيعية .. لماذا ترك الغناء الهندى ؟ ... ماذا يقول المهووس ؟!

لمح العجوز فى زحزحتى ، أكثر ، إلى بؤرة الاهتمام بالصوت .

كان المغنى يمد كل الحروف فى فوضى عجيبة . ألف ، ثم راء ثم كاف ، وباء طويلة مشبكة بواو جماعة شديدة الامتداد . الآن ، اتضح فعل الأمر : اركبوا . وكان من السهل - نسيياً - اكتشاف أن الكلمة الثانية : درآجاتكم .

اركبوا درآجاتكم !

وكانت الدعوة تستغرق لفة كاملة من أدائه الاستعراضى . سمعتها أكثر من مرة قبل أن يتزايد إيقاع إلقائه ، ويزداد معه وضوح الكلمتين . ثم تزايدت سرعة الدراجة ، وهو يردد دعوته فى إصرار غريب ، ويشير إلى الناس بسبابته ، محلزراً أو مؤكداً . توقف المتفرجون عن المشاركة بالاستخفاف . استوقفتهن كلمتا الدعوة وعلامات الجهد ، بل الرعب ، ثم

رنة الرجاء الدافئة فى صوته . ربما كان ييكنى ، ولكنى لم أرى دموعه ، بل فوجئت بالمشهد يتساقط فى حالة اضطراب شديد ، وأفراد من الشرطة يندفعون إلى راكب الدراجة ، فيتزعجه أحدهم من دراجته ، ويقتادها آخر . ويتقدم الموكب خارجاً من الميدان ، والمغنى فى حالة من الاستسلام ، يكاد يخفق من شدة ضغط الجندى على أعلى قميصه . مروا بسائع الصحف ، فحياه المغنى : إيه يا عم السيد ! .. لك عندى ثمن صحيفة الأمس ! .

ثم منحنى ابتسامة مع هزة رأس رقيقة ، وتوقف بين حراسه ، لحظات ، يسألنى :

- (هل تكون شاهدى ١٩) .

كان يمكن - تحت تأثير الدهشة - أن أعتقد أنه يحدث شخصاً غيرى .. شخصاً يعرفه ليكون معه بهذا الود ، ويطلب منه مثل هذا الطلب . ولكنى لم ألتفت حولى أو ورائى لأعرف إلى من - غيرى - يتحدث .. كنت موقناً من أنه يقصدنى أنا . وكنت مهتماً بملاحظة بطاقات صغيرة ملونة تغطى مساحات محدودة متناثرة من أرض الميدان ، ينحنى أفراد الجمهور يلتقطونها .. لم تظهر إلا بعد أن توقف العرض وقبض الشرطيون على الممثل الوحيد . ذكرنى رجل من الواقفين بجوارى ، فى حماس شديد ، بل فى غلظة :

- (لا تخذله .. لقد طلب عونك .. اذهب إليه قبل أن ينتهى بين أيديهم) .

تخلّيت عن رغبتى فى التقاط بطاقة ، وأسرعت وراء مجموعة الشرطة
والمغنى . دخلت وراءهم إلى نقطة الشرطة القريبة التى تشبه البيت
الزجاجى . كنت أسمعهم ، قبل دخولهم إلى النقطة ، يسبون ، فلما دخلوا
به ، بدأوا فى صفعه ، والضابط الصغير المسترخى خلف مكتبه لا يبدى أى
اهتمام . أشار فى اتجاهى غير مبال . سألتى صف ضابط :

- (لماذا أنت هنا ؟) .

قلت : أنا معه .

انتفض الضابط يسأل : مع من ؟ .

قلت : مع هذا !

عاد يسأل : هل تعرفه ؟

قلت : نعم .. إنه المغنى .. راكب الدراجة !

تخلّى الضابط عن كسله تماماً ، وسألتى فى حدة : من أنت بالضبط ؟ !

قلت : طلبنى فبحثت معه !

خبط مكتبه بقبضته ، وزعق فى : من أنت ؟ .. أين هويتك ؟ !

أخرجت بطاقة الهوية وأعطيتها له . نفحصها بعناية ، ثم لانت لهجته

نسبياً ، وهو يقدم لى البطاقة ، ويقول : يا سيدى .. أنت رجل محترم ..
هل تعرف هذا الإنسان ؟ ! .

قلت : كما قلت لك !

قال : هل تعرف أنه سارق ؟ .. اعتاد أن يسرق أى دراجة يجدها
أمامه !

هل يعجبك ما يفعله ؟ .. إنه لا يكف عن إزعاجنا .. يوقف حال
الناس ويعطل الدنيا !

نطق راكب الدراجة : أنا لا أسرق .. أنا لا أخشى بها .. ثم إننى أعيدها
فى كل مرة !

سألنى الضابط : أنظر .. هل هذا منطوق ؟ !

واستمر راكب الدراجة : لن يتكرر هذا .. أعدك .. سأجد طريقى إلى
دراجتى .. نعم .. لىّ واحدة .. بيضاء .. محبوسة فى بشر السلم ..
سأعرف كيف أتخطى الصعاب إليها .. هذا هو حلمى !

أرعدتنى كلماته . تحولت إليه مذهولاً ، ووجدتنى أسأله متشككاً :

- (من أنت ؟ .. ماذا تقول ؟) .

سارع الضابط يقول : ها أنت ترى .. إنه يدعى البلاهة .. ثم انظر ..
هاهو يضيف إلى موقفه سوءاً .. إنه يوزع هذه البطاقات ! !

ونثر الضابط فوق المكتب عدداً من البطاقات الملونة التى رأيتها تغطى
أرض الميدان . تقدم إلى راكب الدراجة ، وصفحه على قفاه ، وهو يصيح
به :

- (ما هذا يا ابن الكلب ؟ .. اركبوا دراجاتكم ! .. اركبوا
دراجاتكم ! .. ماذا تريد من هذا ؟ .. منشور سياسى ؟) .

وقهقه بشدة .

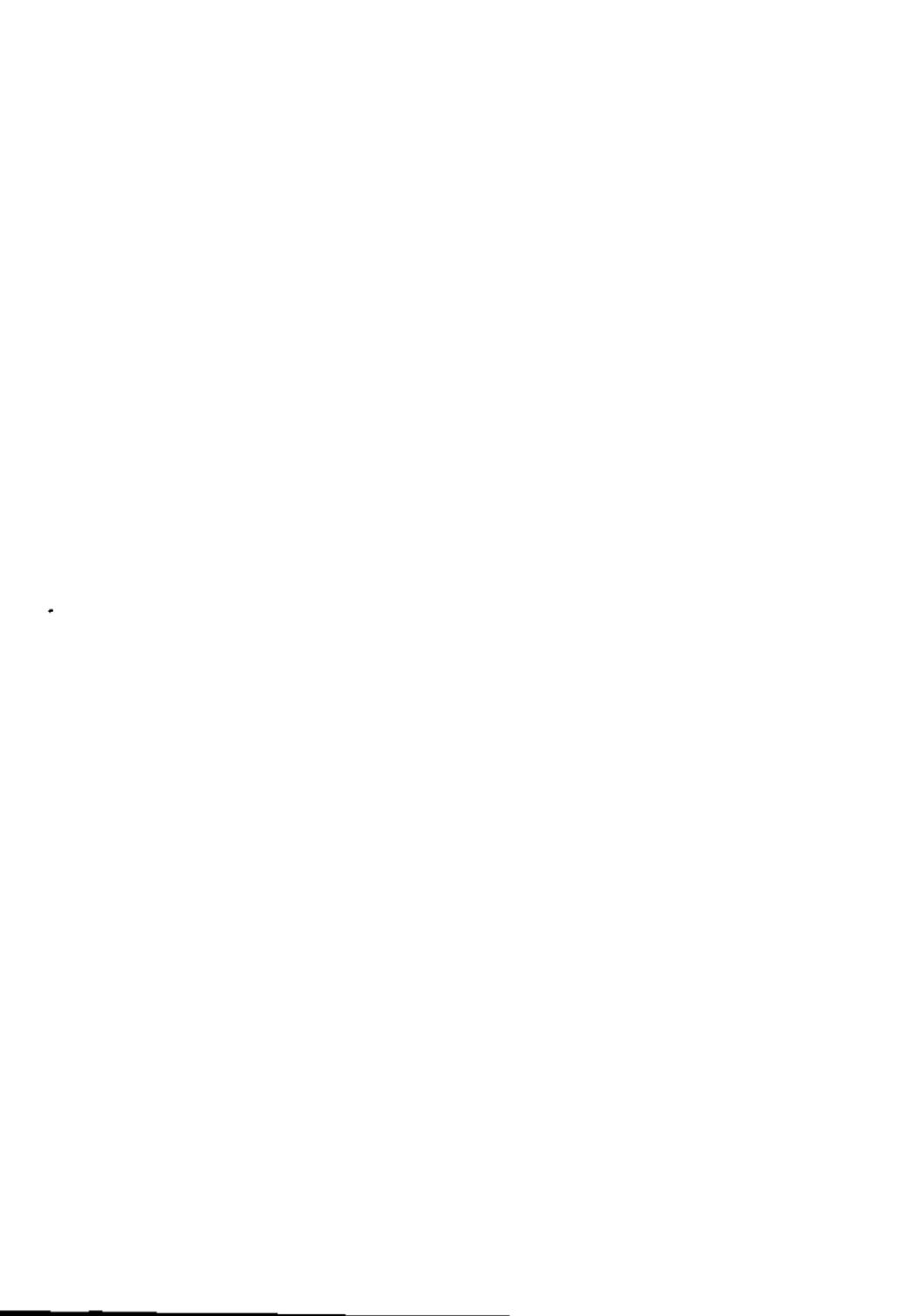
وكنت لا أزال أسير تشككى وذهولى ، أحاول أن أقرأ فى وجه المغنى
أى صلة له بصفحات أسرارى . لقد أطل على جزء من التفاصيل .. فهل
يعرفها كلها ؟ . وكان لابد أن أسأله مشدداً : هل تعرفنى ؟ .. قل .. هل
تعرفنى ؟!

ولمحت - بعد أن سأله - أطراف الخوف تبعث فى قلبى .

رد قائلاً : ألم تأت معى ؟ .. إنك نصيرى !

فتأكدت من خوفى ، ومن رغبة واضحة فى الندم على تسرعى
بالمشاركة منذ البداية . وكان الضابط أدرك اضطرابى الداخلى ، أو رآه
منعكساً فى وجهى ، فاقترح يساعدىنى : لك أن تنصرف يا سيدى .. اتركه
لنا .. !!

ويدون أن أرد ، انسحبت خارجاً محاذراً أن تلتقى عينى بعينى المغنى .
أصابنى إحساس بالاجهاد ، فكانت خطواتى أبطأ من المعتاد ، وكان
أثقلاً تتدلى من أطرافى ورقبتى وكفى . كان العالم بائساً ، ولدى استعداد
هائل للتخاذل والبيكاء . وتأكدت من أننى تخليت عن قهوة الجمعة ،
ورفضت البحث عن فاكهة زوجتى . وطاشت خطواتى فلم أعرف أى
وسائل المواصلات أختار لتقلنى إلى فراشى . لسعت البرودة وجهى
وكفى ، فلبأت إلى جيبى معطفى المتسعين . وجدت أصابعى ضيقاً فى
الجيبين . كانا خاويين . قبضت على ما بالجيبين . أخرجت قبضتائى أوراقاً
ملونة .



الفهرس

الإهداء ٥

(١)

٩ - مشهد من الجنديّة

١٥ - محطتان

٢٥ - بريد حرى

٣٥ - سمك مشوى

٤١ - ظلام

(٢)

٥١ - الماء يرتفع

٥٩ - بيت الأنفوشى

٧١ - جمال عبد الناصر

٨٣ - خذ

٩٥ - اركبوا دراجاتكم

المؤلف

رجب سعد السيد

عضو اتحاد الكتاب

صلوره :

أولاً : كتب فى الثقافة العلمية للعامة :

- ١ - الحرب ضد التلوث : سلسلة (كتابك) - رقم ٧٣ - دار المعارف - القاهرة - ١٩٧٨ .
- ٢ - البحر .. أسرار وكنوز : سلسلة (المكتبة الثقافية) - رقم ٣٨٣ - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ١٩٨٤
- ٣ - الإنسان والبيئة .. صراع أو توافق ؟ (مع آخرين) - سلسلة (كتاب العربى) - رقم ٢٦ - الكويت - وزارة الإعلام - يناير ١٩٩٠
- ٤ - فى عالم البحار . سلسلة (تبسيط العلوم) - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٩٣ .
- ٥ - الأرض شفاها الله . سلسلة (اقرأ) - رقم ٥٨٧ - دار المعارف - القاهرة - ١٩٩٣ . (حصل على جائزة الدولة فى تبسيط العلوم لعام ١٩٩٥) .
- ٦ - مسائل بيئية . سلسلة (العلم والحياة) - رقم ٤٥ - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ١٩٩٤ .
- ٧ - غداً .. القرن الواحد والعشرون . (ط١) : سلسلة (العلم والحياة) - رقم ٦٧ - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٩٥ . (ط ٢) : مكتبة الأسرة

- مهرجان القراءة للجميع - السلسلة العلمية - ١٩٩٦ . (ط٣) : مكتبة الأسرة - سلسلة كتاب الشباب - ١٩٩٧ .

٨ - البحر .. فضاؤنا الداخلى . سلسلة إقرأ - دار المعارف - القاهرة - ١٩٩٦

٩ - أجراس الخطر والكوارث الطبيعية . مركز الكتاب للنشر - مصر الجديدة - القاهرة - ١٩٩٧ .

١٠ - صيد البحر وطعامه . سلسلة (العلم والحياة) - رقم ١١٥ - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٩

. ثانياً : كتب علمية متخصصة (بالإنجليزية)

١ - قائمة تصنيفية لأسماك البحر المتوسط فى المياه المصرية (علوم أساسية) منشورات مركز البيانات البحرية - المعهد القومى لعلوم البحار والمصايد بالاسكندرية - ١٩٩٣ .

٢ - قائمة تصنيفية لأسماك البحر الأحمر فى المياه المصرية (علوم أساسية) منشورات مركز البيانات البحرية - المعهد القومى لعلوم البحار والمصايد بالإسكندرية - ١٩٩٤ .

للتأ كتب أدبية :

١ - الأشربة الرمادية . قصص قصيرة - سلسلة (المواهب) - قطاع الآداب - المركز القومى للفنون والآداب ووزارة الثقافة - القاهرة - ١٩٨٦

٢ - نقوش الدم - روايتان - سلسلة (إشراقات أدبية) - رقم (١٣) - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧ .

٣ - عملية نزوير - قصص - سلسلة (أصوات أدبية) رقم ٢٣ - الهيئة العامة لتصور الثقافة - القاهرة - ١٩٩٣ .

- ٤ - عزيزى طه . رواية تسجيلية . قيد النشر - الهيئة المصرية العامة للكتاب .
 ٥ - اركبوا دراجاتكم . قصص . مركز الحضارة العربية ١٩٩٨
 ٦ - أحسن ١٠ قصص . (مع آخرين) - كتاب اليوم - مؤسسة أخبار اليوم -
 ١٩٩٧ .

رابعاً : كتب للأطفال

- ١ - أريد أن أطير فى الفضاء : كتب الهلال للأولاد والبنات : رقم (٩١) - دار
 الهلال - القاهرة - ديسمبر ١٩٩٠ .
 ٢ - كعكة من جليد : حكايات علمية . دار المعارف - القاهرة - ١٩٩٥ .
 ٣ - قصص لونها أخضر : كتاب قطر الندى (٧) - هيئة تصور الثقافة - ١٩٩٦
 ٤ - وليمة الصباح الباكر : كتاب قطر الندى - (١٢) - هيئة تصور الثقافة -
 ١٩٩٧ .
 ٥ - كنوز البحر : متعاقد على نشره . حكايات علمية - دار المعارف - القاهرة .
 ٦ - الأرنب يحصل على نوقية . قيد النشر - دار التعاون للنشر القاهرة
 ٧ - جدى يفتح صندوقه : قيد النشر - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة .

من قائمة الإصدارات الأدبية

رواية .. قصة

ليلة العشق والمم

حمدان طلباً

نابيح الوقائع والجنون

رقرفة الأحلام للمحببة

مخلوقات الأشواق للطلحة

لا أحد بحبك

دنا فنتلى (من دفاتر التميمين 1)

مطريرة الغروب

دهوع إبريس

أحزان رجل لا يعرف البكاء

القب والعتار

أهلم الفزع في الجزائر

يومية هروب

مسالك الأحبة

العشيق والعشوق

حرب اطلالها

حرب بلاد نهم

حكلمات الحبيب رماح

الطريق والعصفه

من لبيب الشمس

اركبوا دراجتكم

أنا كنده

سيرة عذبة الجسر

شجرة الخلد

شبهه

أهلم هند

الممنوع من السفر

الدميرة

جسد في ظل

الغور للزمالك والدمصر للأهلي

ليس هناك ما يبهج

لا أحد

صعيمي صُح

التشاعر والحرامى

من ينتظر ما لا يتوقع

إينلو

خواتم الجحش الصغير

سرداب

الزجاج للكسور

بنابيع الخن والسريره

بوميات عابر سبيل

وتر مضجود

خبرات لتوبة

حب وظلال

ترانويت

مضوار

الرجل

رجال عرفتهم

الختم

النعيم

الحرابة 2000

كوميديا الإنسجام

أشياء لا موت

إلحاح

بعد صلاة الجمعة

الخروج إلى النبع

رشقات من فوهتى السلخنة

لقبيب الجنون

فندق بدون نجوم

الهروب مع الوطن

تصبح الأسماء

ثلاث حفاك للسم

حلفة القردوس

بسمير العاصى

خلف النهاية بفابل

فرد حمام

عزت الحريرى

عصام الزهيرى

د. على فهسى خثيم

رئيس ليريس وجمة د. على فهسى خثيم

عفاف السيد

د. غيريال وهبه

فتحي سلامة

نيسل سليم التلاوى

قاسم محمد عليوة

قاسم محمد عليوة

كوثر عبد اللطيم

ليلى الشريتي

ليلى الشريتي

ليلى الشريتي

ليلى الشريتي

ليلى الشريتي

ليلى الشريتي

محمد الشراوى

محمد بركة

محمد صفوت

محمد عبد السلام العمري

محمد عبد السلام العمري

محمد قطب

محمد محي الدين

د. محمود دهموش

د. محمود دهموش

ممدوح القديري

متنصر النفاش

منى برنس

نبيل عبد الحميد

هدى جاد

وحيد الطويلة

يوسف فاخوري

شعر ..

أول الرقيا
رويدا بلخاه الأرض
فصائد حب من العراق
بدلاً من الصمت
من فصول الزمن الرديء
تماماً إلى جوار جنة بونسكو
كلها نهابة الأرض
الألوان ترتعد بطرامه
صلاة الموع
ديباً تدايننا
نلف
البحر . النجوم . العشب في كفٍ واحدة
كتاب الأمكنة والتواريخ
حواديت لغدى
سيرة الماء
راند الأثفة
إضاءة في خيمة الليل
نصف حلم فقط
عطر النغم الأخضر
سراب القمر
إشارات ضبط المكان
أوراق مسافر
إنهب قبل أن أبكى
العربة والعشيق
مناعر مصجبة
غربة الصباح
وتس
لبلى العنقاء
العجور للربوع يبع أطراف النهر
هذه الروح لى

مسرحة ..

هذه اللبلة الطويلة
اللعبة الأبدية (مسرحة شعرية)
ملكة الفريد
دراسات ..
هلجس الكفاه
خدييات عصر جديد
حصار للذاكرة
الوقوف على الأمية عند عرب الجاهلية
فراثة للعنسى في بحرالفتوحات
ضد هدم التاريخ وموت الكناية
اللغة والشكل
للغفديين العرب والنترات
ثقافة البادية
الفلل الشعبي بين ليبيا وفلسطين
أدب الشباب في ليبيا
العنصره والإيهاب في الأدب الصهيوني
أباطيل للقرعونية
مصر الفرعونية
البعد الغنبي ، نظرات في القصة والبيئة
واد الأدب العروبي في السعودية
لكتابه للشوع
رحله الكلمات
بحثاً عن فرعون العرس
أعلام من الأدب العلي
مبمنجواي حياته وأعماله الأدبية
زمن الرواية ، صوت اللحظة الصالحة
في الرجعية الاجتماعية للفكر والإبداع
الجائ والتعبئة الثقافية
أدب الطفل العربي بين الواقع والمستقبل بلحج القنبري
الرواية العربية ، رسوم وقراءات
د . أحمد صدقي الدجاني
محمد الفارس
محمود عبد الحافظ
د . أحمد إبراهيم الفقيه
د . أحمد إبراهيم الفقيه
د . أحمد إبراهيم الفقيه
أحمد عزت سليم
أحمد عزت سليم
أمجد ريان
جورج طرايشي
حاتم عبد الهادي
خليل إبراهيم حسونة
خليل إبراهيم حسونة
خليل إبراهيم حسونة
سليمان الحكيم
سليمان الحكيم
سحير عبد الفتاح
شعيب عبد الفتاح
شوقي عبد الحميد
د . علي فهسي خشم
د . علي فهسي خشم
علي عبد الفتاح
د . فريال وهبة
مجدى إبراهيم
محمد الطيب
مصطفى عبد الغنى
أدب الطفل العربي بين الواقع والمستقبل بلحج القنبري
نبيل سليمان

إبراهيم زولى
إبراهيم زولى
البياتي وآخرون
درويش الأسيوطى
درويش الأسيوطى
رشيد العمري
رفعت سلام
شريف الشافعي
صبري السيد
طارق الزباد
ظبية خميس
للغفديين العرب والنترات
عبد العزيز موافى
مصام خميس
د . علاء عبد الهادي
هلوان مهدي الجبلاوي
علي فريد
عماد عبد المحسن
عمر خراب
فاروق خلف
فاروق خلف
فيصل سليم التلاوي
د . لطيفة صالح
مجدى رياض
محسن هاسر
محمد الفارس
محمد الحسيني
محمد محسن
ناصر ناشد
ناصر ناشد

بالإضافة إلى : كتب متنوعة : سياسية - قومية - دينية - معارف عامة - تراث - أطفال .
خدمات إعلامية وثقافية (اشتراكات) : ملخصات الكتب - وثائق - النشرة
الدولية - دراسات عربية - معلومات - ملفات صحفية مؤنفة .

الآراء الواردة في الإصدارات لا تعبر بالضرورة عن آراء يسبها المركز